الطیف

هیثم بهنام بردی

هيثم بهنام بردى

الطيف

رواية قصيرة

NOVELLA

إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق

الطبعة الأولى 2017

الطيف

هيثم بهنام بردى

The Spectrum

Haitham Behnam Burda

*****

ISBN: 9789933920814

الطبعة الأولى 2017
إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق ـ بغداد
جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق، حسب قوانين الملكية الفكرية للعام 1988، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بأذن خطي.

عدد النسخ: 1000 نسخة

First Edition 2017
Published by The Union of Iraqi Writers- Baghdad- Iraq
Revised copyright © The Union of Iraqi WritersThe right of the Author of this work has been asserted in accordance with the Copyright, Designs and Patents Act 1988.

Cover Deisgn & Lay- out: **Sillat Media**
Printing and distribution: **Dar Al Jawahiri**

العمل الفني أو الأدبي ثمرةٌ لانفعالات وجدانية وخيالية للفنان أو الأديب، وهذه الانفعالات لا تظهر إلاّ مرة واحدة فقط.

ليوناردو دافنشي

إضاءة

تنتمي الرواية القصيرة NOVELLA إلى جنس الرواية NOVEL، وظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع عشر على يد الروائي الإيطالي الرائد جيوفاني بوكاتشيو مبتكر الرواية العالمية الأولى [الديكاميرون]، التي حوت بين دفتيها مائة (نوفيلا – NOVELLA)، ومن ثم ازدهرت في ألمانيا حيث كتبها (توماس مان، وكافكا وغيرهم)، ومن ثم كتبها الكثير من الروائيين العالميين، وانتجوا روايات مهمة زادت من شهرتهم شهرةً، منهم (همنغواي، كونراد، كاواباتا، ماركيز، شتاينبك، أمادو، أورويل، فرجينيا وولف... وغيرهم)، لكون هذا النمط من الكتابة يتطلب أداة خاصة تمهرها بكنهها....

[فقد حدد الدكتور أبو المعاطي الرمادي خصائصها في أطروحته التي نال بها درجة الدكتوراه في عام 2003م، وهي:

– حجم متوسط لا يمكن النظر إليه على أنه حجم لقصة قصيرة، ولا يمكن النظر إليه على أنه حجم لرواية طويلة، وهو حجم غير محكوم بعدد محدد من الكلمات.

– استهلال ذو طبيعة خاصة: فتميل الروايات القصيرة للاستهلالات المركزة المكثفة؛ بسبب اعتمادها على شخصية محورية واحدة، وحدث محوري واحد، ولا يتعدى استهلالها الفقرة الأولى، وأحياناً السطر الأول،

ويتميز بشيوع الحس الكوميدي، أو التراجيدي، والتأريخ للبطل والمكان.

– لغة مكثفة تقترب بالسرد من الشعر.

– ازدواجية الدلالة، فالكاتب لا يصرّح بل يلمّح، ويترك الكثير لعقلية المتلقي الاستشفافية، ودائماً لسرده أكثر من دلالة.

– بطل محوري واحد: تقوم الرواية القصيرة على أكتاف بطل محوري واحد، وبقية الشخصيات فيها ملحقة بالمركز.

– حدث مركزي واحد: تقوم الرواية القصيرة على حدث مركزي واحد يستقطب كل مكونات العمل.

– وجهة نظر خاصة للواقع: تميل الروايات القصيرة إلى تحويل مدركات الواقع البسيطة إلى فعل مرئي محسوس، وتغلب المألوف واليومي والنادر والثانوي على الأساسي والمباشر.

– وصف موجز: تعتمد الرواية القصيرة على الوصف الموجز الفعال.

– ملمح السخرية: من العلامات المميزة للرواية القصيرة ملمح السخرية، ويكون أحياناً بأسلوب الاستفزاز، وأحياناً بالرسم الكاريكاتيري، وبالمواقف الكوميدية، والتعليقات المضحكة.

– فضاء خاص يتسم بالمحدودية، يستمد رحابته المكانية والزمانية من القفزات والوثبات الناتجة عن توارد الخواطر.

– إثارة الأسئلة: النص الروائي القصير يثير كماً من الأسئلة دون الاهتمام بطرح أية إجابات.

– من ويكيبديا].

ومن الروايات التي استوقفتني، والتي سبق وأن قرأت معظمها في الماضي البعيد والقريب لروائيين يُعدون من أساطين السرد الروائي في العالم على مر العصور، وممن أخذوا بألباب ذائقتي وذائقة القراء في العالم، أدرج فيما يأتي البعض منها وحسب سنوات صدورها، مع الاشارة إلى

أن جميعها تراوحت عدد صفحاتها ما بين 45 صفحة (ثلوج كليمنجارو لأرنست همنغواي – صدرت عام 1932)، إلى 116 صفحة (كانكان العوّام الذي مات مرتين – صدرت في خمسينات القرن الماضي) لجورج أمادو،... وأنا موقن تماماً أن ثمة عناوين أخرى كثيرة لروائيين آخرين لم يتهيأ لنا قراءتها لعدم ترجمتها إلى اللغة العربية تبّز هذه العناوين لروايات تُعد علامات ثرة في فضاء السرد الروائي العالمي..

- قناع الموت الأحمر/ لأدغار ألان بو- صدرت عام 1842.
- آلة الزمن/ لهربرت جورج ويلز – صدرت عام 1895
- قلب الظلام/ لجوزيف كونراد – صدرت عام 1902.
- الموت في البندقية/ لتوماس مان – صدرت عام 1912.
- المسخ/ لفرانز كافكا – صدرت عام 1915.
- غرفة تخص المرء وحده/ لفرجينيا وولف – صدرت عام 1929.
- مزرعة الحيوان/ لجورج أورويل – صدرت عام 1945.
- اللؤلؤة/ لجون شتاينبك – صدرت عام 1947.
- ليس لدى الكولونيل من يكاتبه/ لغابرييل غارسيا ماركيز – صدرت عام 1961.
- الجميلات النائمات/ لكاواباتا – صدرت عام 1961.

***

الطيف

هذا ديدني دوماً، صار فعلي هذا صنواً لشهيقي وزفيري الباحثين عما وراء سكونية الدقائق المعاشة برتابتها وبلاهتها، أنا أعرف أن لكل فعل ليس فقط رد فعل، بل عليّ أن أفقه وأتقصى الباعث على الدافع، أنا في سكون جسدي على الحائط الرخامي لكنيسة دارسه أتأمل الغروب الذي يفترع السماء ورؤوس الأشجار وشعف الفنائر، وقمم المنائر، أعرف أن ثمة ما يمور ويتدفق من فعل محسوس لا يفصح عن كينونته، ولكنه يمنح ذخائره كقصفة برق خاطفة لمن أفنى دقائقهُ في اقتناصها والظفر بمفاتيحها، وأنا في رحلتي الغامضة في البحث، لم أترك زاوية من بناء مهجور، أو قنطرة تمتطي صهوة نُهير صغير تلتهمهُ أكمتان معرشتان بما لذ وطاب من فاكهة وأوراد، أو أثناء ذهابي وإيابي ربما للمرة المائة وذراعاي تعانقان في تشابك كفيّ المتراقصين كالبندول أسفل ظهري، أحدق من خلل نهاية قبعتي الصوفية نحو أسيجة حدائق ميلانو المتشحة بالدفلى والأزهار والنسيم المنعش، عَلّ ومضة كومض الشهب المتساقطة ليلاً والتي تشد انتباهي بسبب الغبار الدقيق الساحر الغامض الذي يخلفه أثناء رحلته اليوليوسيسية نحو حتفه، وأنا من موقعي أحاول أن أبني في أخليتي كنه العالم الرمادي المتوهج في ثنياته، ويبقى جسدي المسكون بسعير الاكتشاف يكتوي بلجاجة ذاكرتي المهووسة بالتنقيب

في ما وراء الواقع، فأعيا متهالكاً على الحائط الدارس للكنيسة المهجورة أصارع الفجر بأنفاسي المنتظمة في عربة النوم الفجري اللذيذ، أو تنداح قدماي في صراع بين الأيمن والأيسر من اللابد بين ضفتي الجسر فأختار أيكة ورد بنفسجية تصير لجسدي الوسنان فراشاً لا يختاره إلاّ الفنان الذي يروض البنفسج بحنكة ودراية وحرفة، أو أتمدد فوق العشب الندي لحديقة تبتسم بوجه الفجر الوليد اللدن وتسابق ابتسامته أو صرخته الأولى بهتاف القداح الجميل وتبقى البصيرة هي وحدها فقط السابحة في اهليلج الفرحة الأولى للولادة، وبعد أن أنهكني البحث، وفي مرور عابر قرب سياج حجري نبتت بين فجوات حجارته براعم فتية لنباتات لا اسم لها، تعّمق في ذهني الخاطر، فاتسعت ابتسامتي التي كانت تغازل الصمت الشفقي الزاحف، ونما إلى حشيتي خاطر شبيه بخاطر صياد ضائع اهتدى دون هدي منه إلى جزيرة كانت أقرب إليه من نفسه، فتوقفت، وفتحت أزرار معطفي الأدكن، وعدّلت من شأن شلوي، ثم ألقمته الكتف الآخر، واتجهت نحو البوابة الشاهقة...

الحارس

منذ وطأت قدماه، ذات فجر ربيعي، قبل أيام لم أعد أهتم بإحصائها، وهو بتلك الهيئة المميزة، بثيابه الجذابة، وقبعته المتفردة التي تفصح عن ذوق رفيع، وتلك القامة التي ما ميزتها، حين تخاطفت قدماي، ورأسي لما يزل يُعارك بقايا النعاس الذي استوفزته تلك الطرقات المتلاحقة المنغمة المترادفة بنسق نظيم، خيل إليّ أنه لا يختلف البتة عن جذع أية شجرة من الأشجار الباسقة المتعاقبة من طرف الشارع القصي إلى الطرف الآخر الأكثر قصّياً، وإن ما يتميز به من شموخ الشجر تلك العينان الساحرتان الزهريتان اللتان تجبران أي امرئ، مهما بلغ به الثبات وقوة الشخصية على الإغضاء تلبية لتلك الشواظ أو الدفق الضوئي الباذخ الشفاف اللذيذ من أعماقهما، وحالما تواجهنا وأعمدة الباب الفولاذية والشبكة الحديدية تفصل بين جسدينا سمعت صوته الهامس.

– طاب صباحك.

انه ليس صوتاً، بل وشيش الريح اللطيفة في عناقها المحموم مع الأغصان العلوية لشجرة رمان باسقة، تسلقت نظراتي جسده العضل المتناسق البديع وهمست مأخوذاً.

– طاب صباحك أيها السيد.

تفحص الأرجاء المستلقية خلف جذعي، ثم همس بنفس النبرة.

– أريد أن اتخذ من هذا المكان مأوى لي.

ثم بعد هنيهة صمت.

– إن سمحت لي.

حاولت، منذاك، ولحد الآن، أن أجلو مغزى أو فحوى ما جرى في حناياي وأنا ألقي بكافة التوصيات الحازمة بعدم فتح الباب لأي كان وتحت طائلة أية ظروف مهما كانت عرض الحائط، ولكني لم ولن أجلو سبباً مقنعاً لتصرفي المنقاد حيال حضوره الطاغي ولن أفك كنه شعوري وأنا افتح البوابة على مصراعيها وأمشي أمامه في الممشى المحزم بأوراد الخزامى ورائحتها المميزة، ثم افتح باب شقتي أمامه وأنتظر دخوله، تماماً مثلما يفعل الخدم أمام الأسياد... وبعد أن دلف الصالة اقتعد الكرسي الوحيد وأرفق كوعه على المنضدة، مد يده فَتناول كأس النبيذ وألقمه بجرعة واحدة في زوره، سمعت صوت السائل الأحمر وهو يخترم المريء، تورد خداه وغشت صدغهُ حمرة قانية وعندما نهض ترك على المنضدة رزمة ضخمة من الأوراق المالية واتجه نحو النافذة الخشبية وفتح أظلافها، تنّسم نسيم الفجر المنعش واستدار على عقبيه وواجهني ناظراً في أعماقي، انهارت سدود الثقة التي أعتز بها وأتفاخر بها أمام أصدقائي إزاء السيل والموه المتدفق من أعماق لجة عينيه فأغضيت بصري تهيباً، وسمعته يقول.

– هل يكفي الإيجار...؟

وحين رفعت فوقي ناظراً إليه بشجاعة استجمعتها من آهاب روحي المنقادة إلى سحر حضوره، اخترقتني نبرته العميقة.

– لا يذهبن ظنك بعيداً، فأنا لم أرتكب معصية، ولست أفاكاً.

وبعد صمت يتعمد عمقهً، همس.

– قد أتأقلم مع أناس هذه المدينة؟!.

ثم بصوت أعلى.

– سئمت صخب وخواء المدن المكتظة.

وأدار ذراعه بحركة نصف دائرية.

– وأود أن أقتنص صمتي، وسط مدينة الصمت هذه.

ثم انفرجت محياه، وقال بصوت ذي جرس مرح.

– إني لست معتوهاً، ولا مسكوناً من قبل الأبالسة، ولكني أود أن أختلي بنفسي.

وبعد فترة نبر بصوت احتفالي.

– اسمي جوفياني.

ومن ثم أشار بسبابته نحو رزمة النقد في المنضدة.

– وهذا المال يكفيني ويكفيك خلال فترة إقامتي.

وبعد أن استجمع أنفاسه المتهدجة.

– لا أبغي سوى القليل من الماء.

وأشار إلى الغرفة المقابلة للشقة والمتروكة منذ زمن بعيد.

– وذلك المهجع.

ثم ابتلعه الشفق.

– أرجو أن تتخذني صديقاً.

وسمعت آخر نبراته.

– ولا يعلم بوجودي أحد غيرنا.

الطيف

تسوّريني تواريخ متعددة، بت أعرف بعضها ودرستها عن ظهر قلب وخصوصاً السنين التي تقترن بمرحلة فاصلة من حياتي بقسميها المعاش والفني، ففي بعضها ذكريات باتت لصيقة في ذاكرتي، تفصح أو تفتح كوى مضيئة في كينونتي المستوفرة، فهذا يوم يذكّرني بأول يوم انفتحت فيه أصوات كراديس المرتلين في باحات الأديرة وميادين القتال، وأنا بهيئتي وناسوتي الغض أتمعن مسحوراً بالثياب المخملية المزركشة لرجال يتحببون ثياباً أرجوانية ملتمعة ويعتمرون قلنسوات على هيئات متعددة موشاة بالقطائف والحرير المذهب وهي تتسابق مع الفضاءات الرهيبة للقباب الشاهقة التي تخرّمها نوافذ بزجاج ملون يسمح لأسياخ الشمس كي تخترقها لتتشكل في الأسقف العالية نماذج وهياكل تسبح في تمازج مذهل لألوان صارخة، وتذهب أخيلتي وأنا أقبض بكفيّ اللدنين السياج المذهب للمقاعد، في تهويمة ذاكرة لجوجة تقارن بين هذي القامات الناعمة الشفافة، وبين الأخرى التي رأيتها وهي تتجوقل في نسق عسكري متناسق على أعنة الجياد المطهمة، وتحصي في ذاكرات فرسانها رنين سنابك الخيل على البلاط البارد المفضي إلى فم المدينة، حذاء الأسوار الشاهقة الشاخصة إلى المجهول المجبول أما بالظفر أو الهزيمة، وتتطاول نظراتي تتقصى ما وراء السحن الصارمة للفرسان بعيونها الحجرية

ولحاها التي تماهي شجر الخريف في أوج هيمنته، والأنوف المتيبسة، والخدود المتماسكة المشدودة بتوتر حبال الغسيل فوق الأسطح، فيكبر التساؤل في رأسي وبصري على أهل القلانس، وبصيرتي على أهل الخوذ، ويلتهب صدغي الصغير مكتوياً بلهيب الهاجس الملح: ترى هل يتشابه النسيج بين الحالتين، أو بتعبير الصبيان حين يفكرون، هل أن الفريقين يحملان نفس الصفات في الداخل، داخل العين والأنف والشفة والصدغ والجمجمة، وحين يصيبني العته أمسك رأسي بين يديّ وأهمس: لا بد أن اعرف... لا بد... فينخسني رديفي ويقول مؤنباً.

– اصمت.

فأصحو على نفسي وبقايا الجملة عالقة على شفتيّ، وأسمع صوت رديفي.

– احترم، أنك في كنيسة.

وألطم ما فوق الشواهد بنظرة ترقب وقلق، قلق يتسلل إلى خاطري من اكتشاف أمري، يغطس القمر في لجّة غيمة دكناء وتستحم الشواهد في الفيض الباذخ من أمواه الليل السادر، أنهض حاملاً رفشي وعيناي مصوبتان في نقطة تبرق في رأسي موئلاً لنور يغتال العتمة وأفقاً يغنم عالماً نورانياً عاصفاً.

ويثقب ستاره الهزيع الذي يختم ليل محلولك صرخة حسوّن بين فكي قط متدرب على تسلق أشجار الكالبتوس الشاهقة، لتحرز نظرة البريق الزاج في عيني الهر وهو يقفز على العشب ويتخاطف أمامي وفكاه قبضتا مفك حديدي تهرسان الحسون المرتحل إلى العدم... أفكر وفم الرفش يجوس الطريق أمامي.

– ما الذي مات في العصفور أولاً...؟؟!! ليتني أعرف.

وتذهب أخيلتي في رحلة استبصار رامقاً نفسي صبياً يشبك الحمامة

بدبابيس حادة من قدميها وجناحيها، ثم أعمد، وبقلب قدّ من جلمود إلى دبوس آخر وأشّكه في جمجمتها فتغمض عينها تلبية لسلطان نوم إجباري، فأنتضي سكيناً صغيرة وأحّز صدرها وبطنها ثم أثبت الجلد على الأرض وتذهب أصابعي في رحلة غوص واستكناه في تلافيف التجويف الفاغر، فأتعرف على الأمعاء التي تتحرك كالديدان، وتلك العضلة الصغيرة الوردية النابضة بوجيب يتصادى بانتظام، وبعد أن أرى مجاهل الجسد الغزلي الرقيق من الرقبة حتى الذيل، أحّز الرقبة.

والتقطت مجّساتي السمعية طحن عظام مصحوب بمواء منتشٍ شبع، فأهمس لنفسي.

– لا فرق البتة... بين ما يحدث للسوائم وما يحدث للبشر، كلاهما سيان.

وغريزتي لما تزل تقودني، وإحساس آخر مفعم بالرضا عن أن ما أفعله، رغم كل القوانين التي تحرّمه، هو لفائدة البشر، وأولهم من سن قوانين التحريم.

الحارس

لم أتربى منذ يفاعتي وحتى هذه اللحظة والشيب يمسك بحنو سوالفي وقذالتي ولم تكن من سجاياي أن أتلّصص على أحد، وكان هذا ديدني خلال عقود سنيني الستة، ولكن ومن خلال هذه الحصاة التي ألقيت في بحيرة حياتي الهاجعة منذ وفاة زوجتي عرض مرض غريب امتص منها نضارة العينين الخرافيتين في سحرهما، وتوثب الجسد الأنثوي الرهيف. وجعلها خلال أقل من شهر عظاماً تلاحق الغضاريف، وصارت زوجتي الحبيبة شبحاً بأنفاس، حتى استأذن الشهيق مرادفاً معه زفيره في رحلة إلى المجهول تاركاً جسداً صامتاً بارداً، منذ ذاك اليوم نذرت نفسي أن أكون حارساً للمقبرة التي دفنت بها دفق وحجة وجودي، وآليت على نفسي أن أكون جنبها، حيث ترقد تحت أريكة من زهور نظرة وجنبها حفرة مهيئة تتنظر جسدي الذي سيُملئ فراغها حتماً، هذه الدوائر التي ثقبت بكارة بحيرة أيامي جعلتني أنتبه إلى سلوك وتصرفات رديفي وندي في عا لم الغرابة والفرادة هذه، فبعد أن ينهزم الهزيع الأول من الليل غاطساً في لجج تخوم العتمة الساجية، أسمع ضرب قدميه على بلاط المقبرة، فاهرع حاملاً العشاء البسيط، وبعد أن ننتهي من تناوله نبسط قطعة الشطرنج التي أعطاني إياها في اليوم الثاني لوفادته، وعلّمني مبادئها في اليوم الثالث، وبعد تدريب مضنٍ خلال ليلتين جلسنا نلعب بالبيادق والرخ والقلعة

والفيل والحصان المكرّسة لخدمة الملك التيس الذي يتحّصن خلف وزيره الماكر وأفواج حمايته المغماة هي وأفراسها، واستهوتني هذه اللعبة كثيراً لسبب وجيه أنها أثرت وحركت مكامن التبصر والاستبصار في ذاكرتي التي عمدت إلى اركانها في زوايا الزمن البهي الراحل، فصار همي الوحيد الإجهاز على الخصم وصولاً إلى الملك /الزمن الذي يقضقض تحت عجلاته العملاقة كل ما هو جميل ورائع، وهذا الملك/ الزمن، الظالم اختطف من بين حناياي أجمل كائن، فصار ملك الشطرنج الذي يبارز بيادقي الجسورة عدوي اللدود، وعندما تعودت على الفتك به عقب كل لعبة بيني وبين ندي الغارقة مواقه في عالم آخر، غير عالم الرفقة، أحس بالشفقة على الملك الإمعة الذي أركله بإبهامي فيتدحرج تحت المنضدة منكفئاً على ذاته القميئة وخزيه المستديم فالمح في عيني جيوفاني إحساساً يتماهى مع إحساسي ويسبقه بخطوات متسارعة غارقاً في هيولي خاص به لا يشارك به أحداً، فيطفو التساؤل في يم ذاكرتي...

– ما سر هذا الرجل؟

الطيف

أتذكر، في مطلع شبابي، والزغب يطلع للتو في الحرث الندي للذقن وجانبي الوجه وأسفل الرقبة، أن فضولي، وربما لكوني خارجاً للتو من محترف أستاذي الجليل (فيروكو) وأنا أتملى لوحته التي أتمها للتو عن موديل عارٍ لرجل في غروب عمره، أن ثمة رغم تطابق الأصل المادي مع الصورة المفترضة مثلبة منها، أو بتعبير أدق ثمة نقص بّين فيها، فزاملت الأزقة والحواري العتيقة في المدينة، وتلقفتني في إحدى دوامات اصطخاب كينونتي بأمواه الأسئلة الملغزة والتي تبحث عن إجابة ضافية تجعل استفزاز روحي الوثابة إلى المعرفة ترتكن إلى الدعّة، فوجدت نفسي أتزاحم مع أجساد تمشي وفق نسق منظم على هيئة رتل صغير مجتزأ إلى ثلاث، الأول عربة تجرها جياد ترشح عرقاً غزيراً يرقد فوقها تابوت من خشب الصندل، ونساء متزاحمات بالأجساد والصوات، ورجال بسحن صامتة مكفهرة، حاولت أن أجد موطئاً لجسدي بين منارتين بجسدين شامخين، ولطمت مؤخرة العربة حيث تجلس على غرة التابوت لوحة زيتية لرجل أشيب بلحية مدببة محناة، وحاجبين كّثين يظللان عينين غائرتين نافذتين، وجبين أجلد محزّز وشعر مسدل ينبع من قبعة مُحَارب متقاعد، ومشيت ممغنطاً تأسرني تفاصيل الصورة، ويصفدني سؤال.

– أين تكمن «شعلة الحياة»، وأين تغادر بعد الخروج؟

وتعصى علي الإجابة، بل أن خيالي الجامح يصطدم بمصّد صواني يحجم أفعالي الحيوية ويجبرني على الجلوس وأركان راسي المسّيخ بالألم إلى أقرب متكأ بغض النظر عن ماهيته، فليكن أي شيء، المهم أن يصير فناراً لتفكيري المستحيل الضائع في فرضيات تطفو على بحيرة من وهم، وبعد أن أنام لفترة، هي ليست نومة، بقدر ما أحسُها حالة تمغنط تجعلني أجتاز الطرقات والدروب الضيقة والمزارع الممرعة لتجد ذاتي جسدها وهو مسمّر في المسلخ، فتستيقظ رغبتي الحبيسة لفترة وجيزة وأهداب روحي اللجوجة تتأمل الذبائح وهي تُحز، فتتقصى عيناي حركاتها وهي تنتفض والدم يشخب من نحورها كشلال جبلي ثم وبعد عصف أخير خاطف متوتر للجسد تهمد الحركة في الكائن الذي كانت تتجول في أعطافه هذه التي أسميتها «شعلة الحياة» على القنص والترويض وترسل إشارات غامضة قوامها بعض انتفاضات في الصدر وفي الأطراف، ثم شخير من قصيبات وردية طالعة من الرقبة المنحورة ويؤول كل الجسد المادي إلى اللاوجود، فيعاودني هرس الذاكرة وألمها الممّض فامسك صدغي، وألوذ بالفرار وروحي تهتف بتساؤل محض: أين؟!!!.،،،،، أين مخبئها؟، أو شرنقتها؟.

وبعد أن أتمم فصول الممارسة التراجيدية لمسرحية النحر، أنتبه إلى عضلة وردية وسط فوضى الأمعاء المندلقة على البلاط وهي تؤول إلى الصمت بعد تواتر نظيم محصور بين كل رقمين أعدهما في خاطري ثم تتباطأ إلى أربع وثمان وستة عشر و... الخ حتى تسلم نفسها إلى تيه السكون والهمود، فتهمس شفتاي...

– هل هذه الحشية الصغيرة من اللحم الوردي الساحر هي «شعلة الحياة»؟!.

وأنتبه إلى هرس العشب الندي النيساني تحت أقدام حذره مدربة،

فألقم أدواتي في شلوي وأجهد في تمثيل دور شاعر رومانسي يتأمل مخاض الليل عن الفجر الوليد، ثم ألتفت إلى الشجرة الدفلى وأهمس بحنو...

– أهلاً يا صديقي...

فيظهر الحارس مكبلاً بالخجل ليقينه أنه قُبض عليه متلبساً بجريمة التلصص فقال وهو يتقدم محاذراً أن يعانق بؤبؤاه بؤبؤاي.

– لم أستطع النوم فقررت أن أتريض قليلاً.

كانت عيناه المطرقتان تفصحان لهجته المصطنعة التي تستعير من الكذبة البيضاء زبدتها فقلت مهادناً جاعلاً لهجتي تقبل التأويل.

– مثلي تماماً...

في إغضائه وإسباله لعينيه استكنهت محاولة صارمة لجَلد ذاته التي أمرته بالتلصص فقلت بهمس.

– لا بأس يا صديقي.

ولإدخاله في جو من الألفة والاكتشاف واستمطار ذاته بكنه ما كنت أجترحه وريشتي لما تزل فوق أوراقي، قلت له.

– سأقرأ لك ما كنت أكتب.

لم ينبس ببنت شفة، ففعلت وأنا أعرف جيداً أن شآبيب أمطاري ستجد حتماً بذاراً مهيئاً للإنبات في حشية جمجمته. وهذا اليقين تأتى إلى ذاتي لاكتشافي من بعض الملاحظات التي كان يبديها أثناء حواراتي معه أنها تنبت من إنسان على درجة جيدة من المعرفة، فهمست بنبرة تحاكي الخرير في صفاءه وجماله.

[ذات مساء هبط الذئب من الغابة في يقظة وحذر حيث جذيته رائحة قطيع، بخطوات بطيئة اقترب من الحظيرة المليئة بالنعاج، وكان يتحسس المكان الذي يخطو فيه لكي لا يوقظ الكلب النائم حتى بأقل القليل من الضوضاء.

ولكنه للأسف وضع قدمه فوق لوح من الخشب، وجعله يطقطق.
ولكي يعاقب الذئب نفسه على هذا الخطأ، رفع قدمه التي وقعت في الخطأ، وقضمها قضمة أدمتها.]

كان ثمة في عينيه شوق ولهفة وإعجاب، وكان كيانه كله يختص بحركة صاخبة معبئة بالصمت الفاتر، وبعد حين، وأنا أتأمل كيانه المصعوق فلتت الصحية المبتورة من داخله.

– مذهل!!.

عن لا وعي هتف.

– تصرف عقلاني.

ثم نبر.

– هي ليست مشوقة فحسب، بل تنطوي على دروس وعبر.

وقال بعد صمت.

– تمتلك ميزة فذّة لا يمتلكها إلاّ الحكائون المحترفون في ايصال ما تريد بلغة الحيوان.

ثم سألني بلهجة معلم يمتحن موهبة تلميذ يستعير النجابة.

– الذي يسرد حكايات بهذه الطريقة لا بد وأن له أُخريات.

ابتسمت بوجهه بقسماتي ولكن ذاكرتي كانت في تلك اللحظة تحاول الغور إلى جمجمته كي استشف حقيقة هذا المقّنع بوظيفة قلّما يأتي اليها أحد متدرعاً بحجة منطقية، ولكني موقن أن وراء هذه الهيئة سمة رجل حكيم.

– نعم لدي، والبطل فيها ليس حيواناً.

اعتدل في جلسته وانتصبت أذناه مثل نمر وهو يستشعر فريسة أو عدو.

– أنا مصغٍ.

شردت في الليل الداجي وأنشأت أسرد القصة.

[عندما عاد (الحسون) إلى عشه حاملاً دودة صغيرة بفمه، لم يجد صغاره، إن شخصاً ما قد سرقهم أثناء غيابه.

وأخذ الحسون يبحث عنهم في كل مكان، وهو يبكي ويصرخ، وكان صدى نداءاته اليائسة يُسمع في جميع أنحاء الغابة، ولم يكن هناك من يجيب عليه.

وذات يوم قال له طائر البرقش:

– يبدو لي أنني رأيت صغارك فوق منزل الفلاح.

وانطلق الحسون مفعماً بالأمل، وبعد وقت قصير وصل إلى منزل الفلاح، وهبط على السقف.. لم يكن أحد هناك، ونزل إلى الجرن.. لقد كان خاوياً.

ولكنه لمح، وهو يرفع رأسه، قفصاً معلّقاً خارج النافذة، لقد كان صغاره سجناء بداخله.

وعندما شاهدوه متعلقاً بقضبان القفص، أخذوا يزقزقون طالبين منه أن يحملهم بعيداً، وحاول هو أن يحطّم بمنقاره وساقيه حواجز السجن، ولكن محاولاته ذهبت هباءً. وحينئذٍ تركهم وسط نحيب شديد.

وفي اليوم التالي، عاد (الحسون) من جديد إلى القفص حيث كان أبناؤه. ونظر إليهم عبر الحواجز وأطعمهم واحداً واحداً للمرة الأخيرة.

وواقع الأمر، أنه كان قد حمل لصغاره العشب السام، وهكذا لقيت الطيور الصغيرة حتفها.

وقال: من الأفضل أن يموتوا بدلاً من أن يفقدوا حريتهم.]

وعندما رفعت رأسي خلته متكوراً وقد ألجمته الحكاية، ولكن فوجئت به يقف فوق هامتي يتأمل رأسي بذهول وجسده يتمايل ذات اليمين وذات الشمال مثل غصين منفلت لا سند له من أسار شجرة متشابكة الغصون، فقلت له مهدئاً روعه.

– ما بك؟ هل آتيك بالماء.

ظل دهراً حسبته الليل كله على صفنته المذهولة، وعندما نهضت وامسكته من منكبيه وهززته بلطف عاد إليه روعه فحملق بي وكأنه يراني لأول مرة، ثم أمطرت شفتاه كلمات تبينت منها.

– هذه أسطورة طمرت من زمن بعيد، ولكن تناقلها جدودي من جد لجد وآخر جد كان جدي الذي سردها لي، وللأسى ليس لدي حفيد كي اسردها له.

وبعد أن تيقنت أن عاد إلى صوابه، قلت له ملاطفاً.

– إجعلني أنا حفيدك.

نبرت من فمه ابتسامة حزينة تنم في طواياها حزناً قديماً مستداماً، ثم قال وبنبرة تجاري مرحي.

– سأقبل بشرط.

قلت له موافقاً.

– وقبلت به.

سألني مندهشاً.

– تقبل دون أن تعرف منه الطلب.

قلت له.

– سردت لي حكاية واسطورة... الأولى تتحدث عن الحيوان، والثانية بطلها طير، والأن تريد حكاية بطلها جماد من الطبيعة.

فتح فاه مندهشاً، ثم قال.

– صدقت.... هذا ما نويت أن أطلبه منك.

ولم أمنحه الفرصة ليتحدث فأنشأت أحدثه.

[منذ أكثر من شهر، كانت الشعلات تتوهج في فرن مصنع الزجاج، حيث يجري صنع الزجاجيات والأكواب.

وذات يوم شاهدت الشعلات شمعة تقترب منها، ويحملها شمعدان جميل براق. وبسرعة وبرغبة جامحة، جاهدت للاقتراب من تلك الشمعة الصغيرة.

وانفصلت إحدى الشعلات عن جمرة كانت تغذيها، وأدارت ظهرها للفرن ومرت عبر فتحة صغيرة وألقت بنفسها على الشمعة والتهمتها في شراهة كبيرة.

وهكذا أنهت الشعلة النهمة بسرعة حياة الشمعة، ولما لم ترد الموت هي الأخرى مع الشمعة فقد حاولت العودة إلى الفرن الذي كانت قد هربت منه.

ولكنها لم تنجح في التخلص من الشمع اللين، وعبثاً طلبت العون من الشعلات الأخرى.

وتحولت، وهي تنتحب وتصرخ، إلى دخان يبعث على الضيق تاركة جميع أخواتها وسط بريق حياة طويلة جميلة.]

وحالما انتهيت من الحكي، وجدته في نفس الموقف السابق، عيناه ليستا بعينين، بل مجّسات تغوران في فتحات وجهي، من المحجرين، المنخرين، الأذنين، الفم، تستطلعان ذاتي، وحين عانقت عيناه ابتسامتي وعاد إلى رشده، كاد يسألني...

– من أنت؟

ولكنه أحجم لغرض في نفسه لا يماثل غرض يوسف في استقدام أخيه، بل يماثل تماماً إلحاح كولومبس على ملكة اسبانيا، والفرق بين الاثنين بيّن وشاسع، وبعد صمت يقطعه بين الفينة والأخرى طيران الحساسين من أفنان الأشجار وهي تزف للمقبرة بأناسها الهاجعين خبر أن يوماً آخر ينسلخ من مآقي الشرق، همس...

– إنها أجمل من حكايات إيسوب...

وكدت اسأله..

– من أنت؟

الحارس

مع تتالي الأيام وهي تتأبط الليالي القادمة من أقصى الغسوق، برفقة هذا الرجل الغريب، الأنيق، الدمث، والذي ما هجسته مرة وهو يلقي مرساة الأنفة والخيلاء على كاهل قسمات وجهه الرائق، بل ثمة شمس بارقة من الألفة تبزغ في عينيه رغم العتمة الداجية التي غالباً ما نلتقي بها معاً، ، أما في حجرته التي تحتفل عتمتها بعرائس الضياء المبتهجة المتوالدة من ذؤابات الشمعدان المعلق ببندول إزاء النافذة الوحيدة الموصدة على الدوام باستثناء كوة صغيرة قلما يفتح مصراعيها لجندلة أشباح الليل القاتمة، واستقبال الأنسام المتحمّمة بعطر الورود والقداح،... وعسل بشمعه ينسحل من شفتيه وهي تحشو فم ذاكرتي ونفسي بما تجود به به دخيلته من جمل تبدو في غالب الأحيان عصية على الإدراك كطرس أقدم من القدم المؤثث بالأثيل، فهو يروي قصصاً وأساطير وحكايات مؤطرة بالسامق والمشيّد بسيماء أبطال من قاع المدن والكور، وأبطال قصصه، على غير الدارج، ومثلما اجترح «بوكاتشيو» في قصصه (الديكاميرون) وكالطوفان بلبلت هذه الحكايات الذائقات التي أدمنت الملاحم التي تتأطر بما يفعله فرسان أسطوريون من خوارق غير قابلة البته للتصديق، والتي تلوكها الذاكرات مثل اللبان، ورسفت روحها بقيود تلك الفروسية الفجة المطعمة كقطعة فنية من فخار بإشارات السيف والفرس والفارس،

والأمجاد التي لا تتكلل تيجانها ولا تتمجد عروشها إلاّ بالذاكرات البلهاء التي تستذوق حد التخمة تينك السفاهات، فرفضت ما جاء به هذا المختلف من قصص شخوصها كسبة وفلاحون ومهمشون، وثارت الذكرات الراسفة بالمحنّط من الملاحم ضد من جاء ليحررها من أصفاد الانقياد والعبودية التي ماثلت ما جاء به سبارتاكوس محرر العبيد، فوسمته بالكذاب والدجال، ولكن هذا لم يمنع بعضها من الشغف بها واليقين بأن هذه (النوفيلا ستوريا)، جديد سيقوّض ممالك آيلة للنضوب والتآكل والنسيان، ومن هذه الذاكرات ذائقتي الباحثة عن كل ما يعارك حالة السكونية، وأن ما أسمعه من هذا الرجل الذي يبدو لي من المدرسة نفسها التي تخرج منها بوكاتشيو لهو جد ممتع ولذيذ وموحٍ، سيما حين سرد الليلة الفائتة قصصاً لا حد لحلاوتها برموزها التي تلمح إلى فك المغميات مما نعيشه وبطريقة تجعل الذاكرة تجتهد في إجلائها واستغوار معناها المرموز، فأخذت بلبّي وحفظتها على ظهر قلب، وصررت أرددها للفضاء والطير والشجر، وأنا أقتعد كرسيّ العتيق أتملى من نافذة حجرتي شواهد القبور وهي تتطلع إلى الأوراد المطلة على الأفرشة المستطيلة التي ترقد تحتها أجساد تقوضت في فترات حياتية متباينة، والصمت يعزف ألحانه الساحرة وتتخلله بين فينة وزميلتها تغريدة عندليب، أو صداح شحرور، أو توسل حسون للسماء كي تعيد إليه حسونته التي استيقظ مع الشفق فما وجد منها سوى ريشة معلقة بين ورقتين في نهاية الغصين، وبقايا كابوس تمثل في قط يقتنص حبيبته، فيفرك عين بصيرته ويحاول ان يقنع نفسه بأن الكوابيس أضغاث أحلام، وأن ما رآه لا يدخل في خانة التصديق....

لا زال الكرسي الحائل قبالة كرسيّ وبينهما المنضدة القديمة المتآكلة يحكي لي تفاصيل زيارته المفاجئة غير المتوقعة ظهيرة هذا اليوم وهو يتنكب

سلّة أخرج منها صينية مستديرة مغطاة بملاءة بيضاء وبحركة خاطفة أزاحها لتعلن عن شطائر لحم الضآن المعالج بالفحم وهي تضوع حجرتي بمذاقها الشهي، استافت خياشم سجيتي هذا الطعم الذي افتقدته، غب جَلدي لذاتي مذ غادرتني زوجتي ألاّ أذوق إلاّ البسيط من القوت الذي يبقيني أتنفس وأنبض، ولكن إلحاحه المهذب بلهجته الودودة جعلني أقوّض العهد للحظة وامضة إكراماً له، فتناولت شطيرة وتذوقتها، ثم ألوكها ببطء وذاتي تحاول أن تجد تفسيراً لكسره قاعدة نمط حياته منذ وفادته، فهي تتركز وتتمحور في ثلاثة أفعال:.... المجيء ليلاً، السهر حتى صياح الديك الأول، ومغادرة المقبرة غب صياح الديك الثاني، وهكذا دواليك.... ولفترة شهر كامل كنت أشاطره بعض الليالي ونمضي الوقت في تزجية تتلخص باستماعي لعباراته البديعة المحبوكة بجمل قصيرة مكتنزة طافحة بمعنى عميق، أو تسابقنا معاً، كلٌ من موقعه في اقتلاع ملك الشطرنج من أبراجه المشيدة من جماجم المحاربين، أو الاستماع إلى حكايات رائعة ينسجها نول أخيلته العجيبة، وكلما أمضيت معه ليلة مضافة كان ثمة سؤال جديد يندس في جمجمتي، يلظيها ويزجها في مفاوز مجهولة تبحث دون كلال عن الماهية والكينونة والهوية: من هذا الرجل...؟،،، قطعاً أنه ليس منّمقاً للأحجية، وأفاكاً كما قال عند مجيئه، هذا الأمر لا يشكل قلقاً لي قدر ما يشكله شلوه الأزلي الراكن أبداً على كتفه الأيمن، لا يفكه قط، وكأنه توأم له، بل قطعة من كتفه، وما سر الرنين الذي يتصادى في الفضاء كلما نتره صعوداً الى التقعر الذي يعقب نهاية عظم كتفه الأعلى كي تستقيم بشكل أفضل على جنبه؟، وما سر الإنبعاجات والنتوءات التي تّتجسد كلما حوّله نحو كتفه الأيسر؟، والشيء الآخر المحيّر... ما سر ذلك الكيس الكبير الذي يحوي شيئاً كبيراً ألمحه كلما دخل حجرته وهو مركون تحت النافذة؟،

وما سر تلك الدندنة الخافتة التي أسمعها عند الفجر ممزوجة بعزف سلس بعيد وكأنه يأتي محملا عبر النسيم من شعفات التلال والروابي التي تخرم النهاية الجنوبية للمقبرة؟، وما سر تلك الأوبات التي أقتنصه بها من خلل تلك الفتحة الصغيرة لمسمار كبير مخلوع من باب حجرتي وهو بحالة غريبة بشعره الأشعث وثيابه المتربة...؟، وأسئلة أخرى باتت ذؤاباتها مثل أسنة النار الهاربة من شمعدان حجرتي وهي تسرط كائنات الظلام، وتدفئ جمجمتي طاردة حنادس الصقيع والتبلد والعي، فأحلّق نحو أرخبيل النوم العميق.

الطيف

بت كلما أحرث أديم عينيه بنير الاستبصار الذي أحوزه، أرى فيهما، في أعماقهما المفضية إلى احتكامات الحواس في حشايا القحف، أسئلة ملّحة تشبه الطلاسم وهي تضرم في روحة أواراً ثاوياً، كلما أقتنصه وهو يستغور دخيلتي بمجّسات حواسه الثمان، علّ جندول روحه الحائرة ترسي في جزيرة تربض في مجاهل أرخبيل روحي يجد فيها بساتين وواحات وينابيع وعيون وشلالات، تجلي كل الأسرار التي باتت يوماً إثر يوم، وليلة عقب ليلة، عصية عليه، سيما بعد أن قضينا ظهيرة هذا اليوم ونحن نأكل شطائر اللحم المغمسة بروح النبيذ الأحمر المعتق، الذي انتشينا بفعله العجيب فأعتقت الخصيصة الإنسانية المرتهنة بالرتابة من أصفادها وحلّقت بعيداً في فضاءات مترعة باللازورد، فدندن صاحبي بكلمات أغنية شائعة ترددها حتى الحجارة في مدينتنا، وأجاد غنائها وخصوصاً قفلتها الراقصة المجنونة، فاهتز بدنه مرتعصاً منتشياً، ودوزن القرار متماهياً مع الجواب الساحر بدقة أصابع يديه الطارقة على المنضدة، ثم خلد جسده المنتفض إلى الارتخاء، فأسبل جفنيه لاعقاً بقايا اللحن الناضح بالفرح، رفع طرفه وشملني بنظرة عميقة خلخلت ثبات جأشي. وقال بنبرة عميقة آمرة.

– هل لي بسؤال...؟

وضعت الكأس الفارغة وعمدت إلى القنينة ودلقت احمرارها الرائب في أحشاء الكأس، وأجبت.

– طبعاً.

راوزني بنظرة قصيرة غامضة وقال.

– ثمة كيس في حجرتك، هل أكون متطفلاً إن سألتك عن ماهيته؟

لم أجبه، بل حدقت فيه بعمق، ووقفت فجأة... هذه النترة القوية التي تلبست بدني وتصورت في قسمات وجهي جعلته يجفل كأرنب بري، فوضع كوعيه على مسندي كرسيه، وقبل أن ينهض أمرته.

– لا تنهض.

وتسابقت قدماي إلى حجرتي، حملت الكيس وعدت بسرعة الشلال، عمدت إلى عقدة الفم وحللتها وأخرجت.... قيثاري الفريد الذي لا يماثله أي قيثار في الكون بما أجريت عليه من ابتكارات تقترب – بحسب ما هو معروف– من فوضى خلاقة، القيثار/ اللغز، الذي حيّر بشكله وتقنيته قبطان المقبرة وحارسها الأمين – الذي يبدو عليماً بهذا الفن– وجعل يضرب الأخماس بالأسداس وهو يحاول أن يتشرب بمعنى التحوير والابتكار الذي اجترحته عليها حتى باتت أشبه بجزيرة غامضة تبدت لمركب ضال، دوزنت أوتارها وجسدي كله عبارة عن همسة ود ومحبة آسرين.

– إنها شيء جديد.

فندت عن فمه صفارة اندهاش، ثم صالبني بنظرة اعجاب، وهمس..

– استثناء.

قلت بنفس نبرته الهامسة.

– انها وليدة فكرة مجنونة.

وغب صمت، استطردت.

– وهي في المطاف آلة موسيقية.

ثم أنشئت أعزف توطئة الأغنية الشائعة التي أديتها قبل هنيهة، وأغرقت لجتا عينيه أمواه الحيرة، وهو يتنصت لعزف فريد لا يباريه أي عزف، فبادلني النظر بدهشة، وهو يتأمل العناق الملحمي بين كياني كله وبين القيثارة اللائذة كرضيع على صدري الأيسر، فهمس مأخوذاً.

– أنتما....

وجلدت صلمتي أذنيه بصداحين متناغمين ساحرين متعاضدين متماهيين، فغادرته الحيرة والذهول، وترادف صوته متآصراً مع شدوي وتغريدة الآلة العجيبة، وحالما شارفنا على النهاية الراقصة، قام من الكرسي دون ارادته واستدار لفة كاملة حول جسده ثم تهالك على الكرسي ثانية وجسده بتفاصيله الأنيقة يرتعش منتشياً متشرباً اللحن والأداء، تشرب أرض ممحلة لزخة مطر مدرارة،... لفنا الصمت لدقائق، ثم سمعت صوته الواني العطوف.

– أنتما توأمان.

فأشرت بسبابتي نحو صدري ثم حولتها صوب صدره، بيد أنه رد بسبابته نحو صدري والقيثارة، ثم أسبل موقيه وارتكن إلى الصمت كصمت البؤبؤيين وبياضهما وهما يستافان حشيتي وحشيتها.

وبعد أن حط رحال رحلته التي ما وهبته سوي صحارى تفتقد واحاتها فاستحالت إلى مشاريع كثبان مهمتها قلع كل ما يمت إلى الحياة بوشيجة، وهي تهرقها إلى أهراء الفناء خلال تكونها بأشكال جديدة في رحلة انعجان أجنة جديدة لكيان جديد، فخرج صوته مشوشاً.

– تمتلك صوتاً به خصيصة نادرة لم أجد قط شبيهاً له.

ابتسمت بوجهه فشع جو الحجرة بمجسمات تستعد لشيء استثنائي تهجسه روحي المدربة على الاكتشاف، وقبل أن أنبس استطرد.

– يقيناً من يمتلك هكذا صوت وتلك المهارة في ترويض الوتر، يمتلك قدرة الكتابة والتلحين.

وقبل أن يكمل، كانت أصابعي نسيماً يعانق خدود الأوراد فيتوالد صوت صادح ووشيش يسابق شدو كل بلابل الكون وعنادله وكروانه..... كان صوتي يماهي عشق الوتر والحنجرة وهما يرددان...

إن الروح لتزداد حزناً كلما أزددت تفكراً
في من يبدد الوقت دون نيل الفضائل
لا يمتلك الفضيلة ولن يستطيع نيلها
من يتخلى عن الشرغ لنيل الفضائل
لا يستحق الفضل من لا يعرف الكدح
ما من هبة تُنال كاملة من غير شقاءٍ كبير
ينال الغبطة من يتقفى الفضيلة
إنتصاراتنا، أمجادنا إلى زوال
الشهوات، الأحلام، التبطل
نفت من العالم كل فضيلة

لم يتمالك خلجات نفسه هذه المرة، فنهض واتجه صوبي وعانقني لاهجاً بصدق.

– مذهل أنت.... مذهلة الأغنية التي ألظيت بها روحي ونفسي، مذهل أنت في كل ما تجترح من أعاجيب، مذهل....

ابتسمت بوجه روحه اللاهجة بالتدله بكلماتي العميقة الغور في الروح الإنسانية، وقلت له بلهجة آسرة الود.

– هذا من فيض طويتك الطيبة

وبعد ابتسامة مشرقة نبتت على شفتيه برعمة على هيئة سؤال.

– المقطع الأخير ...

إنتصاراتنا، أمجادنا إلى زوال

الشهوات، الأحلام، التبطل

نفت من العالم كل فضيلة

سبق وأن قرأته كقول لفرانتشسكو بترارك.

انذهلت لسعة إطلاع هذا ال...(الحارس)، فهو فعلا لبترارك،... ووسط صمتي ودهشتي وبدلاً من أن أسأله بلجاجة.

– من أنت؟

نبرت مصدقاً ملاحظته.

– نعم هي لبترارك.

ومن خلل انفراج افق شفتيه عن شفق ابتسامة حيية، رطن معجباً.

– هذه ليست أغنية عابرة، بل حكم محكّمة على شكل أغنية.

وأحسست من جديد من خلال انسلال أسياخ نظراته العميقة في ألباب بؤبؤي موقيّ، وكأنه يريد أن يسألني.

– من أنت...؟

الحارس

صار التساؤل طنيناً يؤرقني ساعات الليل والنهار، كل هذه الخصال تجتمع في جسد رشيق ووجه بسيم وروح شفيفة، ورغم كل هذا البهاء والتلقائية والعفوية التي تجتمع به، لكن ثمة مطارق ومعاول تقوّض كل هذه قناعاتي التي تجعل من تعيق مثاليته في نظري، متمثلة ببضع اشارات غامضة أتلقاها أثناء نومتي الأثيرة العميقة في الهزيع الأخير من الليل، ولا سيما عندما تنذر دلالاته المرسلة إلى الفضاء أنه بصدد الرحيل مفرجاً عن الفضي القادم الذي يبشر بقدوم الشمس تسبقها جدائلها البارقة، عندما يتسمع، وخاصة وأنه يمتلك أذناً تلتقط أوهن الإشارات حتى وهي تغط في سباتها الفجري، صدى خطى حذرة خافتة تشبه سقوط ريشة على قرطاس، فتنفتح رموش عينيّ، وتنتصب صلمتا أذنيّ، وتتوهج سمة الاستنباط، فألمح طيف شبح، وأتّسمع صوت خطى، وأتكهن، بل تؤكد بصيرتي أن ثمة شخصاً بالقرب مني، وتجزم البصر والأذن والبصيرة، أنه هو....؟؟!!، ويزداد اليقين ويتجذر عندما يهيمن صمت فريد وتهجع كل نأمة إلى سكون مطبق يتخلله صوت كتزحلق ورقة شجر مورقة على عشب ندي، لينفتح وبحذر تام باب حجرته، وصوت خطى رياضية واثقة، ومن ثم أسمع البوابة ليختتم المشهد بدوران المفتاح في أكرة الباب، ويتحكم صمت الشفق من جديد. وأجلس في الفراش والتكهنات في

رأسي شبيهة بصهيل الحصان، وحصانة القلعة ووقار الفيل ولجاجة الوزير وصرامة الملك وحركة الجنود الدائبة وهي تدك رأسه بمهاميز أصلب من الحديد، فأغمض روحي على أمواج صائلة تمزق أشرعة زورقي وتسحبني إلى لجة ظلمات القاع مصطحباً معي الملك والوزير والقلعة والفيل والجند، حيث السكون الأبدي، ولكنني أتشبث ب... نوح وفلكه، وانداح في ممرات ذهني سؤال ملّح.

– هل أخالف طويتي المشيدة على السبل القويمة، وأتلّصص عليه؟

فأنفض رأسي طارداً الفكرة، وأتفاجأ بشيخ أبيض الروح واللحية، يبتسم بوجهي ويهمس.

– لا تخالف طواياك المشيدة على السبل القويمة، ولا تتجّسس عليه.

أرد على الشيخ الجليل.

– إنه غريب الأطوار.

يبتسم الشيخ ويلهج.

– انه انسان طيب.

ثم يستطرد وهو يختفي بفلكه بعد أن يتركه في حدائق غنّاء تصدح فيها الطيور وتدرج فيها الحملان.

– إنه ليس شريراً.

فتذهلني العوالم التي وجدت نفسي فيها، فأدرج مستلذاً ببكر العوالم الطهور التي تذهلني تفاصيلها، فتنتظم أنفاسي ويضيء وجهي وهو يتلقى أولى الرشيشات المنعشة لشمس طفلة.

الطيف

– حان وقت رحيلي.

كانتا ممدتين أمامي، الأولى طُمرت هذا الصباح، والثانية قبل شهر، كنت حريصاً أن أقفل باب حجرة التوابيت بشكل محكم، ووضعت قطع القماش في عتبتها السفلى كي لا يتسلل الضوء خارجها، لأنها إن حدث هذا سأنفضح، وسيقبض عليّ متلبساً مع صديقيّ... الصبي والشيخ، كانت المدية في يمناي تعمل حّزاً في صدريهما، فأخرج قلب الصبي والشيخ وأتأملهما بدقة وأكتب في السجل المفروش في حجري وأدون في الجدول الذي ينقسم الى ثلاث أعمدة، الأول مدون عليه كلمة صبي في العاشرة، والذي بجنبه مدون عليه كلمة شيخ في الستين، والعمود الأخير مدون عليه كلمة الفارق بينهما. وأدّون في كل عمود ما لاحظته من أشياء تتماثل وتتنافر بين الجثتين، مع الأخذ بنظر الاعتبار – وهذا مهم جداً– الفترة الزمنية التي دفنتا بها، مع تثبيت ما تغير في الأعضاء المفحوصة في عمود الفارق، وكنت أكّب، كما هو عهدي كلما أتيحت الفرصة لي، على دراسة الدماغ والقلب والرئتين والكبد والأمعاء والعظام والعضلات والشرايين والأوردة، وكلما لفت نظري من الجثة، وكانت فترة غنية غاية في الجدية وأنا أميط اللثام عن تفاصيل هذه الأرض البكر، تأخذ بها بمكنونات بصري وبصيرتي في إجلاء الغامض مما يحدث للجسد الإنساني بعد الموت، وطبيعة الأعضاء البشرية ومجاهل

هذا العالم المشيد من العضلات والعظام والأعصاب والأنساغ الصاعدة والنازلة، ناهيك عن بحثي المحال عن مكان «شعلة الحياة»، وأين تغادر، ومن الفحص الدقيق كنت أدون أيضاً أي من الأعضاء البشرية تتلف في البدء بناء على مشاهداتي التي أصرف كل حواسي في استشفافها، وكنت في أية معلومة جديدة استخلصها تتبدى لي عوالم علمية جديدة تقوّض، بل تلغي تماماً القناعات التي لا تستند الى المعاينة الميدانية التي تفضي إلى التشريح العلمي الرصين، بناء عليه كانت تحلو لي الكثير من الرواسخ الجديدة – في هذا الوقت على الأقل– التي تستند على الدقة والعلم والمعاينة الميدانية التي تتبدى مزهوة بمصداقيتها حين تنبني على البرهان العلمي الناجز.... فكنت كالنحلة أتنقل بين الجثتين الممدتين على المصطبتين المرمريتين حائلتي اللون، وأنا منتش بما حققته من فائدة قصوى من خلال عملي الليلي في التشريح والتي ناهزت العشر جلسات، وحزت بها مفاهيم جديدة من الممكن إن أُعلنت أن تفّند القديم ويبدأ عصر جديد وضعت فيه الخطوة الأولى لطب يعتمد البراهين العلمية الدقيقة بغية بناء علم صحيح قوامه المعلومة العلمية الدقيقة المبنية على المنطق وتقويض كل المفاهيم الخاطئة عن صيرورة الجسد وما يؤول إليه بعد مغادرة «شعلة الحياة» له، بعيداً عن الافتراض المتخلف الذي يماهي الدجل المنّمق والرجم بالغيب والتفيؤ بظلال الجهل...

سحبت شهيقاً عميقاً بعد أن طويت كراسي الذي امتلأ حتى نهاية صفحاته بكتابات ستكون نافذة مضاءة معلقة في أفق المعرفة، وبعد أن انجلت الكثير من الأجوبة لتساؤلاتي، وانجلت الكثير من الطلاسم التي كانت تشل تفكيري بمزلاج المعرفة المستندة على المعاينة والبحث والتقصي...

ووظفت حواسي المعروفة وغير المعروفة في اجلاء كنه الإشارة التي

التقطتها والتي تفصح بما لا يقبل الشك والقائلة: (إني لست وحدي، بل ثمة آخر معي)....، وتسللت إلى الباب وألصقت عينيَ في أكرته التي تسمح برؤية ما وراءه ان أزحت ورقة المقوى التي ثبتتها فيما مضى، وأجلت نظراتي المجنونة... كل شيء ساكن وصامت، والزمن هي تلك الفسحة بين هجيع وهجيع من هجائع الليل المعدودة الداجية في العتمة والسكون والمجهول، بقيت واقفاً متلصصاً وعقلي يحاجج نظري وسمعي في أن ثمة كائن آخر قريب مني يتّسقط ما أقدمت عليه من فعل ممنوع، سيعرف الناس في المستقبل، قريباً كان أم بعيداً، مدى ما قدمته من خدمة ضافية للتقدم العلمي في الطب وخصوصاً في علم التشريح، أحد الركائز الرئيسية في هذا المضمار العلمي المهم، وعندما مالت الكفة ولو عن عدم قناعة إلى السمع والبصر، انزوى العقل إلى مهجعه في طوايا جمجمتي هو موقن أنه محق في ما ذهب إليه... حينها فتحت الباب بعد أن أطفئت المشعل وأعدت الجثتين إلى لحديهما وسويت التراب وكأنه لم يُمس، وطرق الهاجس مرة أخرى كل مسامة من مسامات قناعتي.

– حان وقت رحيلي.

وأنا أحث خطاي العجلى نحو حجرتي، بعد أن تيقنت من شلوي الذي يحمل المشارط والفؤوس والمناشير والإبر والخيوط... وحين احتوتني حجرتي تغلب العقل، فكان قراري الحاسم بمغادرة المقبرة، وإلى الأبد....

الحارس

تتناهبني مشاعر شتى متضاربة، جعلتني كنورس وحيد تتقاذفه الريح ويرفضه الموج، وتجعل من روحه النقية ساحة صراع عاصر يكون فيه هو الضحية الوحيدة، ويجلجل كياني سؤال.

– ماذا أفعل...؟

إن ما عاينته من هذا الرجل بعد منتصف الليلة الماضية جعلني في حالة شبيهة بالحصاة المقذوفة في الفضاء حين تصل إلى مرحلة تلاشي القوة الدافعة ووقوفها حائرة بين التحليق أكثر دون وازع الاندفاع، ولكن الواقع يقول أن موئلها العودة إلى حيث الانطلاق، لأن شحن القوة الدافعة تلاشى، هكذا كانت روحي شبيهة بحالة تلك الحصى، فقوة الشحن التي أطلقتني ودفعتني والتي قوامها الانبهار ومحبة وتوقير هذا الزائر العجيب الذي بالكاد يغادر الربع الأخير من العقد الرابع من العمر، انقلبت رأساً على عقب حين تكشفت حقيقته في حجرة التوابيت وهو يبقر أحشاء الجثتين، ويعاينهما والاهتمام الذي يكاد يقترب من الإنسطال بادٍ على محياه وهو يدّون أشياء في سجل ويكتب بنهم طفل التقط ثدي أمه بعد أن هرس روحه الجوع والظمأ.. هو قطعاً يعرف أن هذه الفعلة شنار، وأن قوانين (ميلانو) تمنع هذا الأمر وتعاقب من يقترف هذا بعقوبة قد تصل للموت، ولكنه اقترف المحال، والعجيب أن

الدافع لم يكن السرقة أو ارتكاب المحرم أو أي شيء آخر، بل شطر بالمشرط وإدلاق الأحشاء ثم معاينتها وتقليبها وفتحها بالمنشار إن لزم الأمر، ومن ثم خياطة الجسد بعد أن يعيدها إلى أمكنتها وإعادتها إلى التابوت من جديد... هذا كل ما فعله، ومن طريقة اهتمامه الفذ، وتلك القسمات الجادة جداً التي تنم عن العبقرية استنبط جازماً أن هذا الرجل طبيب،.. أو ربما عالم يحاول أن يدرس جسد الإنسان وما يتردى إليه بعد الموت، أو أن يستبصر جوهر الأعضاء الداخلية للبشر بطريقة عملية علمية مدروسة، هذا الأمر أنا موقن منه، وأن قصده نبيل، ولكن لا أن يرتكب هذه الفعلة التي عقوبتها الموت له وربما لي بتهمة التستّر،... ثم همست لنفسي قبل أن ينفجر رأسي من الصداع، والذي ابحرت به إلى آفاق الكرى.

– هذا المساء سأخبره عما رأيت، وأطلب منه المغادرة.

و.... استيقظت، كانت الشمس تطرق الباب بلجاجة تناقض تماماً بلادة وسكون جسدي المنقاد إلى أقصى درجات التيبس، شبكت ساعديّ حول رقبتي مستدعياً طرقعة المفاصل، كي تتشرب مفاصل جسدي المصهورة بالقلق إلى ليونة مفتقدة، وفي لمحة خاطفة تسربت إلى ذاكرتي صور الليلة المنصرمة كابوساً خلخلت قناعاتي السابقة بصدق طوية أي انسان يطرق باب أيامي مهما كان، ومن كان؟ فعليك أن تجارية بكل المصداقية المتوالدة من صدق طويتك... وتلبدت روحي وهي تعاين نقاء طويتي تُخان بهذا الشكل المخزي، وخامرني شعور خائب مرير بأن قناعاتي التي عاشت معي خلال العقود الخمسة والنيف من عمري صارت تتسلل من سقف أيامي مثلما تتسلل قطرات المطر من خلال الوهن الحاصل في آجر سقف بيت روحي، فنهضت مسكوناً بالحزن والحرد ومشيت صوب باب الحجرة وفتحته، حالما سحبته نحو الداخل

طارت ورقة ملفوفة كانت معاقة بأكرته من الخارج، انحنيت والتقطتها ونفضت شريطها الأبيض، مشيت نحو المنضدة، جلست على الكرسي، بسطتها أمامي وأنشأت أقرأ:

[سيدي المحترم...

أتذكر تفاصيل الفجر الأول الذي طرقت فيه بوابة المقبرة؟، أنا أتذكرها بكل تفاصيلها الدقيقة، لأنها –بحق– كانت بداية أيام امتدت شهراً كاملاً بنيت فيها أواصر صداقة حقة مع شخص يحمل كل دلالات وأمائر وسمات الشفافية والبراءة والمصداقية والطيبة المفرطة، صدقني... صديقي الصادق الصدوق، أنك انسان تحمل شارة النبل والأصالة في كل سجاياك، وأشكر الرب الذي قيض لي أن أتعرف إليك في هذه الظروف الاستثنائية، وأنت الباحث عن النقطة المضيئة التي تستخلص زبدة التجربة الإنسانية بكل اصطخابها، بأفراحها وأتراحها، بسكونها وحركتها، ببياضها وسوادها، بلحظاتها ودقائقها وساعاتها وأيامها المرتحلة نحو حتوفها، والتي ما فتئت تستنبط وتفرز صلاحها وطلاحها، إشراقها وغروبها، كي تصل إلى القناعة التي ستبحر من خلالها إلى أبديتك صحب زوجتك، ولعمري أن تلك المسافة المزدهية بالليلك والخزامى والبيبون و..... والمحاطة بالآس والتي تزف سريراً مشغولاً من قبل حبيبتك، وآخر فارغ ينتظر مرساة مركب حياتك من أسر بحر الحياة، لهي أسمى ما تتوصل إليه الذاكرة التي لا تكل عن البحث في الوصول إلى معنى ما قصد «دانتي أليجري» في استقصاءه كل هذا المآل في كوميديته التي اختصرت المعنى الروحي لثلاثية «الجحيم، المطهر، الفردوس» التي عنونها بال... «الكوميديا»، والتي أزاد عليها المعجبون مفردة «الإلهية» من شدة إعجابهم بها، ولا أخفيك أنني مسكون بهذه الملحمة الرائعة،... وإني سعيد بلا حدود لتعرفي إلى رجل مثقف لماح ذي باصرة عميقة

متشربة بالمعرفة في كافة مضانها وأصولها، رغم التواضع الذي يمهر ذاتك وأنت تحاول أن تضفي على معرفتك معلومة جديدة تعزز معرفة أخرى حتى لو كانت بحجم حبة الخردل، صدقني يا رجل... أنني صديقك، وأطمح أن تقبل صداقتي، وذلك أيّما شرف لي، أن أعاضد الينبوع الصافي، اللذيذ، المنعش، النقي، في أبهى صوره، وأود أن أعتذر من كل قلبي، عما صدمك منذ ساعات لما كنت أفعله في حجرة التوابيت، وأقول بصدق دون أن أقسم أو أُغلظ الإيمان بأن هدفي من هذا الفعل نبيل، ونبل يحاول أن يرتقي إلى نبل ذاتك التي تصدق، لأنني لا أتحدث وأبوح إلاّ بالصدق،.. ولا أُخفيك، أنها ليست المرة الأولى التي أخرج فيها الأجساد المائتة وأحاول أن أبحث عن كنه الجسد وشعلة الحياة في الجسد، في بحث علمي بحت يقوّض «النظريات» التي تُقال وتُكتب ولا تستند إلى البيّنة.... لأن ما يجب أن يعلّم في المحافل العلمية مثلاً هذه الحقيقة التي توصلت إليها بالمعرفة المنطوية على البرهان:

– (في أي عضو أو مجموعة من الأعضاء تتركز شعلة الحياة في الجسم الحي؟، ما هو المحرك الأساسي لها؟، لماذا تكون الإصابة في بعض الأعضاء مميتة، وفي البعض الآخر غير مميتة، بل قابلة للشفاء؟.)

والتي تترسخ وتتشرعن بفعل التجربة الميدانية والتي تشير إلى:

– (من الأفضل، بل هو أكثر دقة وفائدة، أن يشرح الإنسان ما يريد وصفه عن طريق الرسم، لا بالكلمات.)

وقناعات أخرى دوّنتها في السجل الذي –بالتأكيد– عاينتني أدّون فيه مشاهداتي الميدانية وأنا أُعاين أعضاء الجسد البشري.

أخي وصديقي..

قبل أن تتخذ قرارك الذي يتجسد بالاعتذار عن استمراري في السكن بمعيتك –وأنت محق في ذلك بالتأكيد– اتخذت أنا هذا القرار، وبقدر

حزني الشديد على هذا القرار، أكون في غبطة لا تضاهيها غبطة، أن تصدّق ما كتبته لك، وتلك، ورب الكون والخلائق، غاية مناي وفرحي وراحتي.

وداعاً يا أطيب وأخلص وأنقى صديق.

جوفياني]

حدقت نحو عريشة العنب التي تحنو على باب قوس البوابة وأنا أحاول أن أعيد التوازن إلى مخيلتي وأخيلتي كي تهضم هذا البوح الذي كان يقطر صدقاً ويبلل السطور ويضفي عليها بريقاً قوامه الحقيقة، فلم أتردد قط في تصديق كل كلمة قرأتها لأنها كانت تشي بالصدق ولا شيء غير الصدق. رفعت طرفيَ نحو حجرته، ألفت بابها مواربا، مشيت بتثاقل، وطئت العتبة، كانت خالية تماماً من حاجياته، تمثلته جالساً على السرير بشرشفه النظيف المرتب، كان يضع رأسه بين يديه كعلامة للخزي الذي يتلبسه، اقتربت منه وتلمست لحيته بحنو الأب الذي استقبل ابنه الضال ورفعت وجهه، كانت عيناه مخضلتين بالدموع، نظرت إلى عينيه المرتعصتين، وهمست بذياك نبرة أب الابن الضال.

– لا عليك يا صديقي.

وبعد أن أمسكته من كتفيه، وواجهني بعينين منكسرتين، همست.

– أنا أصدقك.

ونظرت حولي،... كنت وحدي إزاء نافذته التي فتح مزالجها أخيراً، ولا أحد سوى شحرور يغرّد خلفها، نفضت رأسي وفي إلتفاتة خاطفة نحو قدم السرير المحاذي للحائط لمحت كرّاساً غلافه جديد براق، يبدو أنه نسيه في حمأة مغادرته العجولة، حملته بعناية ثم خطفت خطواتي نحو البوابة، ولتوقعي... ولكون سجّيته حققها بالفعل وبمصداقية لا غبار عليها، وجدت بخلاف صباحات كل الأيام الماضية، مفتاح البوابة الذي

كان بحوزته طيلة الفترة التي قاسمني فيها السكن، ملقى على الأرض أمام أقدامي، فتيقنت أنه ألقاه من أعلى الباب كبرهان على برّه بوعده بأنه لن يجيء إلى هذا المكان ثانية.

الطيف

أحياناً تخطط لشيء، وليس في بالك أي هدف سوى تحقيق لما تخطط له، وأن ما تصادفه من أناس أثناء التخطيط ما هم سوى أطياف عابرة تمر ومضاً في الخاطر ثم سرعان ما تنفجر كفقاعة ماء، لتترك شعوراً بالنشوة بفعل برودة كينونتها المنعشة، ثم تزول وتنطوي في أعطاف دقائق الماضي، وهذا ما كان في بالي وأنا أخوض غمار رحلتي التي استغرقت شهراً كاملاً في مكان لا يتوقع أحد من أهل قصر دوق ميلانو أن يجدوني فيه، ولكن تداعيات ما تمخض من تلك المغامرة الفريدة لم ينته غب انفجار الفقاعة وتصّرم ذكراها في ذمة الأيام، بل تشربت في حشيتي تنعشها مذ انوجدت وحتى بعد أن تركتُ المكان إلى الأبد، فأنى لي أن أنسى تلك السويعات المترعات بالنقاء والبكورة، وروحي تحلّق وتدرج وتعوم في ذلك الفضاء اليوتوبي الذي لم تشّيده ذاكرة مؤلف أم فنان أم فيلسوف أم عالم، بل هو موجود في كل ضيعة ومدينة، يوتوبيا تعشّش وتعّرد وتتوالد فيها الأطيار بالتساوي وتشرق الشمس فيها مرسلة جدائلها الدافئة على الخلائق بأجمعها على السواء، وتتنفس شذا الورد في جنباتها على السواء، وكل ما فيها من عطايا وهبات وحيوات تتوزع على أناسها على السواء،... وأنى لي أن عزمت أن أصنع إطاراً للوحة نابضة بالحياة، فلن أجد أكثر زهواً وجمالاً وتناسقاً من الروح الماطرة بكل

ما يحمله «الإنسان/ النموذج» من الحارس الذي أسرني بروحه الشفيفة، وثقافته الموسوعية التي كان يحاول أن يزنزنها في طواياه كي لا يزوّق كالسفسطائيين، بل كان دوماً ينتظم في مقاعد الدراسة ويتخذ أمامي وضع التلميذ الذي يحاول اقتناص النباهة كي يرضي معلمه، إن هذا الرجل كسب ودي وتقديري، وصار لا يفارق وجداني أناء الليل وأطراف النهار، وكل أمنياتي أن يكون قد فهم واستوعب رسالتي، أنا موقن من ذلك، وأمنيتي الكبرى أن يسامحني لأنني غششته، كان الأولى أن أخبره مذ خبرت سجاياه وطيبته وعلمه، عن كنه غايتي... وأترك له الخيار في السماح لي من عدمه، ولكن ما أحجمني عن هذا، وكان هذا «الأمر- التفكير» مشروعاً لي، وكان وجه الشرعية فيه أن يرفض طلبي خوفاً من أن تطاله يد القانون وأن يعتذر، فلن يكون لي من مندوحة والحالة هذه سوى نهاية لفعالية قبل أن تبدأ، وأن أغادر وأفوّت على نفسي فرصة تاريخية لنيل المبتغى، والمبتغى هنا مجموعة من الينابيع التي ستتشكل من خلال التنقيب في الجلمود والتي ستلتقي في المطاف مشكّلة نهر المعرفة.

على أية حال، ما حدث حدث، ولا يمكن أن ألوي عنان الزمن كي أشطب ما حدث، وكل ما أبغيه أن يسامحني إذا أحس وتيقن من كوني «أفاكاً» نصبت عليه وجعلته وساطة لنيل مبتغاي، وإن ما فعلته لن يوصف بوصف أهون من «النذالة».

صدقني يا أخي الموقر..

انني انسان يبغي المعرفة، المعرفة التي تفتح مغاليق البوابات التي صدأت مزاجها كي تفضي إلى جنباتها ورياضها شتلات الرقي والتقدم والمعرفة والتطور...

وأكرر...

سامحني يا شلال المسامحة.

الحارس

في الصالة المتحممة بشلال الشمس المنعشة، جلست منهكاً وأنا أحاول أن أرّتب في رأسي الصور التي انداحت بتسارع مخيف خلال الساعات القليلة السابقة، وضعت الكراس فوق المنضدة، وتخاطفت قسمات وجهي على أديم المرآة المدورة الموضوعة في منتصف المنضدة، نظرت بانشداه.... كان الوجه المرتسم أمامي لشخص آخر وليس لي، فالعينان متورمتان محمرتان، والخدان شاحبان ناصلان، والجبين محزّز متغضن كأنه وديان عميقة تجاورها وديان أعمق، واللحية شعثاء بياضها يخنق سوادها...، حملقت بانتباه هر وأنا أهمس لذاتي: إن من يراني الساعة لن يعرفني قط، سيما حين يحاول أن يصدّق الحاضر ويزلزل قناعات السابق في اعتياده لهيئة حارس يكون دوماً في أبهى حالات الأناقة لكونه يقتنع بحقيقة مفادها: إذا كان الجماد والطبيعة بهذا الجمال، فلمَ لا يفوق الإنسان هذا الجمال وهو يمتلك خصيصة لا يمتلكها الشجر والورد وشعاع الشمس وضياء القمر، وهي العقل والإدراك؟؟!!،... فعزمت أن أحّمم ذاتي وروحي وجسدي بالماء البارد المنعش كي تستعيد كينونتي المهوّشة كنه كينونتي المفتقدة، دفعني الفضول كي أتملى —وأنا أنهض– صفحات الكرّاس، فقلبت الغلاف لتعلن الصفحة الأولى عن نفسها، فأفلتُ صرخة بترتُها بزّم شفتيّ، ولكن الكلمة خرجت مصّفدة

بطعم الحيرة والدهشة.

– ما هذا...؟؟!!.

وجلست على الكرسي من جديد، أتصفح الكلمة التي تتوسط الصفحة بشكل غريب لن أفقه منه شيئاً، هي أحرف بدون شك ولكنها لا تنتمي للغتنا، مجرد تشكيلات وألغاز غير مفهومة بتسلسل وترابط لن تفهمه حتى الأشباح ولن يفك لغز الرسم الذي يتذيل الصفحة أي شخص مهما بلغ في التفسير شأواً بعيداً، قلبت الصفحة نحو التالية لتتضاعف حيرتي وبصري يجلد بكل ما أوتيت بصيرتي من الاستنباط والاستغوار والاستكناه لكل ما هو غير مألوف، وهذه السمة عُرفتُ بها منذ نعومة أظفاري، وكان أقراني في الطفولة والصبا والشباب والرجولة المبكرة والمتأخرة يستعينون بقدرتي على الأعّم الأغلب: الغوص في اللب بعدّة الغواص المتبصر....، ولكن هذه الموهبة توقفت عالنة عن عييها في فك وإجلاء الطلاسم الماثلة أمامي على طول الصفحة بأسطرها التي تتعامد وتتوازي وتجنح مرة بأسهم نحو اليمين وأخرى إلى اليسار، نعم أنها تعني شيئاً، ولكن ما هو..؟!!، وبأية لغة أُنشأت...؟؟، لا أعلم. وهصرت جبيني الذي كاد يتهاوى أمام هيجان ما يربض خلفه وهي تعلن عجزها أن تفسر ما تلقته من تهويمات ببحثها المجنون الذي عجز عن فك المغاليق الموصدة، وقررتُ أن أعود إلى الموضوع بعد أن أحمّم روحي بالماء البارد في الحمام المعّمم بالشجر والفضاء الزاكي المحّلى بالتغاريد....

وأنا أغادر الحمام لم تفارقني قط هذه الألغاز التي بهدلت كياني فعزمت على استدعاء كل الملكات «العبقرية» التي عُرفت بها، لأُجلي كنه الطلسم وأمتحن فراستي التي ما استخدمتها مذ سكنت روحي هذا المكان البعيد عن المدينة وضجيجها وهراء ممارساتها، وجلست

على الكرسي مغمض العينين وذاتي تلملم فراستها، تماماً مثل دجاجة تسقّف أبدان أفراخها بجناحيها، تلمست وجهي وجسدي بحنو ريح خفيفة ضاعفت نشوتي، ففتحت لاحظيّ مشبعاً بثقة متناغمة بأني سأكتشف ما يساعدني على الفلاح، نظرت في الصفحة ثم رفعت طرفيّ لتصطدما بالمرآة المتغنجة على المنضدة، وانذهلت.....؟؟؟!!!، كانت الصفحة التي تركتها قبل الاستحمام منتصبة بفعل النسيم ومصطدمة بقمة المرآة وكأن قوى غير منظورة ساعدت فراستي على التوقع، أو قدرة قدرية لا ترد منحتي واحدة من أسرارها النادرة وجعلت الورقة تعانق وجه المرآة وتقبّلها ثم تبتعد عنها لتقبلها من جديد، وليمتخض عن هذا الأمر انبلاج باب الطلسم الذي أفضى إلى السر الملغز، والذي دخلت جوفه المضيء بالقبس فضاءات ما بعد الباب لتكتشف العينان المحدقتان بذهول والمهيئتان لجذل لا محدود قادم، مفاده أن الجزر العصية بانت وان الأرخبيلات وبحور العماء أعطت أسرارها وها هي روحي تتشرب بصفحات «السجل/ السجل»، الذي نضى عن نفسه سمة «السجل/ الطلسم»،... فقد منحت لي المرآة الفرصة في إجلاء الحروف والجمل والسطور والصفحات وتكتشف البواطن الخفية لما هو مزروع في بطون الأوراق، فما كان قبل الحّمام في منطق المحال صار الآن في متناول الذاكرة التي لا تحتاج سوى إلى أن تلتهم ما سطّر بين دفتي السجل من الغلاف إلى الغلاف، فصارت بصيرتي قارب صيد يستقبل شباك الدرر التي وهبني بها أوقيانوس يم تلك الجمجمة التي غادرتني هذا الفجر دون أي أمل بالرجوع،... واقتنصتني الساعات والأيام والليالي التي عشناها معاً بأصفاد الإعجاب والدهشة والغبطة، بإدهاش جديد ما عاد غريباً عنه، حين كتب ما يريد من أفكار وحكايات ويوميات بطريقة عبقرية فذّة لا تخطر ببال انسان عادي، ولولا الخدمة التي قدمتها لي المرآة لكنت

حسبت – رغم أنه لا يفعل شيئاً جزافاً- إحدى المداعبات التي يقوم بها اناس غير عاديين لبلبلة ذائقات الناس الآخرين، كانت ما اجترحته ذاته تنم عن عبقرية قلّما تراود لمخيلة آدمي خارق الذكاء، بل أنها لن تراود سوى أخيلة الإنسان/ العبقري..... تقول: إنها الكتابة المقلوبة، مبتدأها من اليمين إلى اليسار، ولن تفك لغزها إلاّ إذا وضعتها ازاء المرأة وتقوم بفعل القراءة في وجه المرآة، فتستوي الكتابة لكون المرآة بأبعادها تعكس الصورة مقلوبة.... فاستويت على الكرسي، تراخت حواسي وأنشأت أقرأ:

– عن خطأ أولئك الذين يستخدمون المعرفة (الخبرة العلمية) من غير العلم، إن أولئك الذين يشغفون بالمعرفة بدل العلم، مثلهم كمثل ملاح ماهر صعد إلى السفينة من غير دفة ولا بوصلة، فهو ليس على يقين إلى أيم يبحر.

– لا إنجاز يتحقق في الطبيعة من دون منطق، اعتنق المنطق ولن تعوزك التجربة.

– أيها المتبصر بالأشياء، لا تباهي بمعرفة الأشياء التي عادة ما تسوقها الطبيعة من تلقاء نفسها، ولكن افرح بمعرفة غاية الأشياء التي هي من تصميم عقلك.

– كما هي هالكة كل مملكة منقسمة على نفسها، كذلك شأن كل عبقري موزع الفكر على مجالات مختلفة، تلتبس عليه الأمور ويضعف.

– مثلما يصدأ الحديد من الإهمال، والمياه تنتّن من الركود أو تتجمد من البرودة، كذلك يقوّض الخمول قوة العقل.

– العمر يتبخّر، يطوي المسافات خفية ويضللنا، لا شيء أسرع من السنين، ومن يبذر الفضيلة يحصد الاجلال.

– اكتساب المعرفة في الفتوّة يخفّف شر الشيخوخة، فإن كنت ممن يؤمنون بأن الحكمة غذاء الشيخوخة، فليكن سعيك كبيراً في الشباب، بغية ألاّ يصيب شيخوختك نقص في التغذية.

– من يرغب أن يرى كيف تسكن الروح الجسد، فلينظر إلى ذلك الجسد كيف يصنع بمحيطه اليومي، إذا كان المسكن قذراً ومهملاً، فإن الروح سوف تُبقى الجسد بنفس الطريقة، قذراً ومهملاً.

– الإنسان وسائر الحيوانات هم بالضبط ممرات ومجاري طعام، هم أنفسهم مقبرة الحيوان ونُزل الموتى، كلٌّ يصنع حياته من موت الآخر، هم الوعاء الذي يحتوي التفسخ.

– سوف يتبع البشر الشيء الذي يخافونه أكثر من سواه.

– عن الأرض المحروثة. لترون الأرض عاليها سافلها يجابه كل وجهٍ نصف الكرة المعاكس، كاشفاً مكامن المخلوقات الأشد هولاً.

– عن اللحم المقدد الذي تُحشى به المصران (الأمعاء... لحم السجق أو النقانق). مخلوقات لا تُحصى سوف تجعل مصارينها بيوتاً لها وتسكن فيها.

– عن الظل الذي يصاحب المخلوق. لترون صور البشر والحيوانات وأشكالها تتبع أولئك البشر وتلك الحيوانات أينما هربوا: ومثلما يتحرك أحد القرينين، بالضبط يتحرك الآخر، لكن الأروع من هذا وذاك هو تنوع الحجوم التي تنتحلُها تلك الأشكال والصور.

***

و.... إليك صديقي الطيب المأخوذ بحكاياتي المستنبطة جلّها من الأساطير المتداولة والتي كاد بعضها يندثر، بعضاً منها والتي نسجتها بطريقتي الخاصة في الروي، وما شجعني على كتابة هذه الحكايات

المؤسطرة يا صديقي الذي تصر أن أسميك حارس المقبرة وليس باسمك الذي أجهله حتى هذه اللحظة، ذائقتك المتلقية بشكل مذهل لكل تفاصيلها الدقيقة التي تنسكب من أخيلتي بشكل مشوق تأخذ الألباب فضلاً عن سجيتك المجبولة بالمعرفة الموسوعية الثرة، وليقينك الذي أحسسته ولحظته من خلال ردود أفعالك في كون هذه الحكايات والأساطير من الممكن أن تكون ذات تأثير بيّن ومهم في تشذيب سلوك المرء خصوصاً وهو صبي أو مراهق، وتجعله يقتدي بالمعاني السامية المستنبطة منها، إليك..... يا ندّي وصنوي وخديني وذاتي الصافية... هذه الحكايات، مع وعدي الصادق بأنني سأكتب الكثير منها والتي كانت ستبقى مطمورة في مقبرة ذاكرتي وذاكرة الأجيال لولا انتباهة ذائقتك الثرية بالتلقي المتفاعل المدهش، ولن أعدم وسيلة لإيصالها إليك حتى وإن افترقنا.... إلى الأبد.

الأولى:
أبو جراب
(من الأساطير)

عندما انطلق ((أبو جراب)) ليبحث عن الطعام، أخذ الثعبان المتخفي وسط الأفرع، في التحرك تجاه العش.

وكان الصغار ينامون في هدوء.

واقترب الثعبان وفي عينيه وميض ينم عن الشر، وبدأت المأساة، عضة سامة لكل منهم، وهكذا انتقل المساكين من النوم إلى الموت.

ولما أرضى الثعبان غروره، عاد إلى مخبئه، لكي يتمتع برؤية أبي جراب عند عودته.

وعاد الطائر بعد قليل.

وعندما شاهد تلك المأساة، بدأ في البكاء، وكان نواحه يائساً، لدرجة أن جميع سكان الغابة كانوا يسمعونه في تأثر. وكان الأب المسكين يقول وهو ينظر إلى أبنائه القتلى:

– أي معنى لحياتي الآن بدونكم؟ أريد أن أموت أنا كذلك مثلكم!

وبدأ يمزق صدره بمنقاره فوق القلب مباشرة. وكانت الدماء تتدفق بغزارة من الجرح، وتبلل الصغار الذين قتلهم الثعبان.

ولكن فجأة، اهتز ((أبو جراب)) المحتضر. إن دمه الساخن قد أعاد الحياة إلى صغاره، إن حبه بعث فيهم الحياة، وحينئذٍ لفظ أنفاسه الأخيرة وهو سعيد.

الثانية:
النملة وحبة القمح
(من الحكايات)

كانت هناك حبة قمح ظلت بمفردها في الحقل بعد الحصاد. لقد كانت تنتظر المطر حتى تعود وتختبئ تحت الأرض.

ورأتها نملة، فحملتها على ظهرها واتجهت بها في مشقة كبيرة ناحية العش البعيد.

وأخذت النملة تسير وتسير، وكانت حبة القمح تبدو كما لو أن ثقلها يتزايد باطراد على أكتاف النملة المنهكة.

فقالت حبة القمح:- لماذا لا تدعيني وشأني؟

وأجابت النملة:- إن تركتك وشأنك، فلن يكون لدينا مئونة لهذا الشتاء. إن أعدادنا كثيرة نحن معشر النمل، وكل واحدة من يجب أن تحمل إلى بيت المؤن أكبر قدر من الغذاء الذي تنجح في العثور عليه.

فاستطردت حبة القمح قائلة:- بيد أنني لم أُخلق فقط للأكل. أنني بذرة مفعمة بالحياة وقد خلقت لكي آتي للوجود بشجرة،. انصتي إليّ يا عزيزتي النملة، فلنعقد اتفاقاً بيننا.

وفرحت النملة بالركون غلى الراحة قليلاً، وأنزلت عنها حبة القمح وسألتها:- أي اتفاق؟

فقالت حبة القمح:- إن تركتيني هنا في حقلي وتخليت عن رغبتك في حملي إلى عشك، سأرد لك مئة حبة مثلي خلال عام.

فنظرت إليها النملة غير مصدقة.

– نعم يا عزيزتي النملة. صدقي ما أقوله لك، إن استغنيت عني اليوم، سأعطيك مائة حبة مثلي، سأهديك مائة حبة قمح لعشك.

وفكرت النملة. – مائة حبة مقابل حبة واحدة فقط، ولكنها معجزة!

وسألت حبة القمح:- وكيف ستفعلين؟

فأجابت حبة القمح:- إنه سر. إنه سر الحياة. أحفري حفرة صغيرة وادفنيني بداخلها، وعودي خلال عام.

وفي العام الثاني عادت النملة.

وكانت حبة القمح قد أوفت بوعدها.

الثالثة:

البجعة
(من الأساطير)

حنت البجعة عنقها في اتجاه الماء، ونظرت فيه ملياً.

وحينئذ أدركت شعورها بالتعب، وسبب ذلك البرد الذي كان متمكناً من جسدها وكان يجعلها ترتجف كما يحدث في الشتاء: وعرفت بكل تأكيد أن ساعتها قد حانت ويجب أن تستعد للموت.

لقد كان ريشها لا يزال أبيض كما كان في أول يوم من حياتها. وكانت السنين وتعاقب الفصول قد مرت بها دون أن تلّطخ رداءها الناصع، والآن يمكن لها أن تذهب وأن تختم حياتها وهي لا زالت جميلة.

ورفعت عنقها واتجهت في أناة وخشوع إلى أسفل شجرة صفصاف حيث تعودت الركون إلى الراحة ساعة الظهيرة، وكان الوقت مساءً حيث الغروب يكسو ماء البحيرة باللونين الارجواني والبنفسجي.

ووسط الصمت المطبق من حولها، بدأت البجعة تشدو.

ولم يكن قد سبق لها قبل ذلك أن أرسلت مثل هذه النبرات المفعمة بالحب للطبيعة بأسرها ولجمال السماء والماء والأرض.

وانتشر شدوها العذب المغلّف بالحنين، وأخذ شعاع حياتها ينطفئ شيئاً فشيئاً مع آخر شعاع ضوء في الأفق.

وفي تأثر، قالت الأسماك والطيور وكل حيوانات المرج والغابة:- إنها البجعة.. إنها البجعة تودع حياتها.

الرابعة:
الفراشة وضوء القنديل
(من الحكايات)

ذات مساء، كانت فراشة كبيرة الحجم متعددة الألوان تهيم على وجهها وهي تحلّق في الظلام، عندما رأت ضوءاً صغيراً على بعد، وسرعان ما وجهت أجنحتها إلى تلك الناحية وعندما وصلت بالقرب من الشعلة، أخذت تحوم حولها في خفة وفي عجب شديد، كم كانت جميلة!.

ولما لم تكتف الفراشة بتأملها، صممت على أن تفعل معها ما كانت تفعله عادة مع الأزهار العطرة: وابتعدت واستدارت واتجهت بشجاعة نحو الشعلة ومرت فوقها ولمستها.

ووجدت نفسها في ذهول أسفل القنديل، وانتبهت في دهشة إلى أنها فقدت ساقاً، وأن طرف الأجنحة قد لسعته النار.

وتساءلت دون أن تجد تفسيراً لما حدث، وقالت:- ماذا ألم بي؟.

لم يكن في مقدورها على الإطلاق ان تعترف بأنه من الممكن أن يصيبها سوء من شيء جميل جداً مثل تلك الشعلة، لذلك بعد أن استعادت شيئاً من قوتها، ضربت بجناحيها وعادت تطير.

ووثبت عدة وثبات، ثم اتجهت من جديد ناحية الشعلة لتقف عليها، وعلى الفور سقطت محترقة في الزيت الذي كان يغذي الشعلة القوية.

وهمست الفراشة التي كانت في النزع الأخير قائلة:- يا لك من

ضوء ملعون. لقد كنت أعتقد أنني سأجد سعادتي فيك، لكن على العكس... وجدت فيك الموت. إنني أندم على رغبتي الحمقاء لأنني عرفت طبيعتك الخطرة في وقت متأخر جداً وبعد أن دفعت الثمن.

فأجابها القنديل:- أيتها الفراشة المسكينة، إنني لست بالشمس كما كنت تعتقدين في سذاجة. إنني ضوء فقط، ومن لا يستطيع استخدامي بحرص، يكون مصيره الاحتراق.

الخامسة:

الورقة والمداد

(من الحكايات)

كانت قطعة من الورق موضوعة أعلى مكتب مع أوراق شبيهة لها، وذات يوم وجدت مليئة بالعلامات. فقد خط عليها قلم مبلل بمداد شديد السواد، العديد من الرسوم والكلمات.

وقالت الورقة في استياء للمداد:- ألم يك في وسعك أن توفر عليّ هذه المهانة؟ لقد جعلتني أتسخ بجحيمك الأسود، لقد أتلفتني إلى الأبد!.

وأجابها المداد قائلاً:- انتظري.... إنني لم أجعلك تتسخين، ولكنني كسوتك بالشعارات، إنك لست بقطعة ورق الآن، ولكنك أصبحت رسالة. إنك تحرسين فكر الإنسان، لقد أصبحت أداة ثمينة.

والراقع أنه بعد فترة وجيزة، لمح شخص وهو يعيد ترتيب الأشياء الموضوعة على المكتب، تلك الأوراق المتفرقة وجمعها ليلقي بها في النار، ولكن فجأة انتبه إلى الورقة ((المتسخة)) بفعل المداد ومن ثم ألقى بالأوراق الأخرى، وأعاد وضع الورقة التي كانت تحمل رسالة الذكاء إلى مكانها بحيث تسهل رؤيتها.

أما هذه فليست حكاية من نسج الخيال، بل أستطيع أن أجزم وبلا تردد أنها حقيقية، وأعرف الفنان الذي جعلته بطل قصتي التي أسميتها (اللوحة) وكذلك الموديل الذي وقف أمامه، وأتمنى أن لا يأخذ بك الشطط بعيداً في (التفسير) و(التحليل) و(الاكتشاف)، بل أدعوك إلى قراءتها بتمعن.

***

اللوحة

كان الفنان يمضي ساعاته المزحومة بالضنك والسفر المتواصل باحثاً عن أجمل وجه ثلاثيني ليتوجه مسيح العشاء السري في لوحته المزمع أن يرسمها عن العشاء الأخير للفادي مع تلامذته، طوى الوهاد والتلال والجبال، تعب حصانه الأشهب وتقرحت أقدامه وهو يعارك الأرض ويطرح المدن والضياع الواحدة أثر الأخرى، دون جدوى، وفي ليلة شتائية باردة ماطرة، وقد كاد اليأس يستوطن جوانحه صادفته حانة، فربط حصانه بعمود خشبي ودخلها، استاف أنفه المتجمد رائحة الجن الأبيض والنبيذ الأحمر، ورائحة شواء الضآن، انتبذ طاولة متفردة في زاوية الحانة وأنشأ يتوسل الدفء المتسرب من المدافئ المطمورة في الحيطان، انتشر الدم في شعاب خلاياه فأرسل نظراته يتقصى الأشياء..... كراسٍ خشبية قديمة مبعثرة، وسكارى يحتسون النبيذ بشراهة، وآخرون منكفئون على طاولتهم يغطون في سبات عميق، والنادل يجلس على طاولة في صدر البار يستمع بملل ويتثائب بين الفينة والفينة إلى عزفٍ هادئ سلس ينساب من بيانو قديم يستكين كعجوز ذاوية، زاوية المسرح وثمة شاب منكب على مفاتيحه يعزف بهمة انسان أضناه الجوع ثم وجد سُفرة سماوية مبسوطة بين يديه، حالما وقعت عينا الفنان على وجه العازف حتى قفز من مكانه هاتفاً بفرح.

– وجدته .... وجدته!

– أتسمح لي بالجلوس؟

نظر إليه العازف بعينين حالمتين، وهمس.

– تفضل.

جلس الفنان قبالة الشاب وهمس.

– أشكرك.

لم يجب الشاب، بل ظل ينظر إلى نقطة ما في السقف، قطف عيه تأمله صوت الفنان.

– أعرض عليك مشروعاً كبيراً.

ابتسم العازف الشاب وقال بلهجة مداعبة ودودة.

– تقبلني في فرقة موسيقية متجولة ...؟

اعتدل الفنان على كرسيه ووضع ساعديه على المنضدة وقال بلهجة جادة.

– بل أهم.. إنها فرصة لك لتبقى في ذاكرات الأجيال اللاحقة، وربما حتى انقضاء الدهر.

فغر الشاب فاه وردد بذهول.

– انقضاء الدهر؟!!!، ماذا تقول؟ هل أنت ثمل...؟!.

أجابه الفنان بثقة ومصداقية.

– لم أحتس قطرة واحدة.

ازدادت حيرة الشاب وهمس لنفسه.

– إن أنا إلاّ عازف عادي لا أمتلك موهبة أن أصير موسيقاراً.

فنبر الفنان بصوتٍ ذي جرس عميق.

– بل أنك تمتلك موهبة فذّة في مجال آخر.

أجاب الشاب محبطاً.

– جربت كل شيء، في الموسيقى فقط، وفي العزف بالتحديد، وجدت ما أسد به رمقي.

أيده الفنان على الفور.

– نعم، أفهم تماماً، ولكن مشروعي هو أن تصير مسيحاً.

فلت الكأس من يد الشاب وارتطم بالأرض، تناثرت شظاياه متخذة من حمرة النبيذ ثوباً تزدهي به، التفتت بعض القامات لبرهة تستشف كنه ما حدث، ثم عادت إلى شؤونها، وفلتت صيحة الدهشة من فم الشاب.

– نعم!!؟.

وقبل أن تصدر أية نأمة أخرى من الشاب، قال الفنان بثقة.

– لكي أزيل ذهولك، سأقول لك ببساطة أنني اخترتك لكي تصبح مسيحاً في اللوحة التي أزمع رسمها عن العشاء الأخير، وقد اخترتك لأن قسمات وجهك تطابق تماماً صورة المسيح المطبوعة في ذهني، وسأعرض عليك علاوة على تفردك مبلغاً من المال يعوضك عن كل الليالي التي ستقضيها موديلاً أمامي، علاوة على مباركة أسقف ميلانو... فكّر أيها الشاب وأبلغني الجواب غداً مساءاً في نفس المكان.

فترك الشاب في دوامة من الذهول.

***

كانت الصورة آية في الجمال، يسوع بوجهه المضيء يجلس في صدر القاعة وحواليه التلاميذ وهو يفرد كفيه على طاولة تقطع القاعة الفسيحة من الطول إلى الطول، وحين وضع الفنان آخر لطخة على ثوب المسيح سحب شهيقاً عميقاً ثم تراجع إلى الوراء وأنشأ يتأمل اللوحة لهنيهة، ثم أغمض عينيه رضىً وأنتشاءً وهمس.

– والآن لم يبقَ إلاّ الإسخريوطي.

التفت إلى العازف الشاب وخاطبه.

– تستطيع أن تأتي وتنظر مسيح العشاء الأخير.
مشى الشاب نحو اللوحة، ولما تأملها هتف بانذهال.
– يا إلهي، إنها تكاد تنطق.
ثم ردد مع نفسه.
– أنه فنان كبير حقاً، وكأنني أرى وجهي في المرآة.
ثم بفرح حقيقي.
– ها أني صرت مسيحاً في لوحة قد تبقى لقرون وقرون.

***

تصرمت شهور عديدة والفنان لما يزل يبحث عن أقبح وجه ليصلبه خائناً لمعلمه في لوحة العشاء السري، وأخيراً ... وفي أحد الأزقة التي تقبع في الظلام والعفونة والرذيلة وجد ضالته، وقف في زاوية الزقاق يتأمل الوجه الشاخص أمامه :... وجه بائس فيه كل ما يمثل القبح من معنى، أقتنع الفنان على الفور أن هذا الرجل البائس الذي يقاوم برد المدينة بأسمال رثة ووجه أمرد ناتئ العظام وذقن حجري موشوم بالحقارة، وبحاجبين كثين ملتصقين من الوسط بأجمة من شعر أسود مضمخ بالبؤس، وبعينين ذئبيتين ثعلبيتين صقريتين اللتين لا تهدئان في مستقرٍ ما.... فتقدم منه بخطى ثابتة وهّم أن يلقي قطعة معدنية على المنديل المبسوط أمامه، ولكنه عوض أن يفعل هذا تقرفص إزاء الوجه وصار يتملى فيه بعمق، وسأله.
– كم تكسب من التسول؟.
أجابه الرجل دون أن يرفع رأسه.
– نقود قليلة تطرد عني غائلة الجوع.

نبر الفنان وهو يقرب وجهه متفحصاً تفاصيل الرأس.

– ولكني أشّم من فيك رائحة الخمر.

أجابه الرجل على الفور.

– أنه الملاذ.

غب صمتٍ قصير سأل الفنان.

– ما رأيك باتفاق ؟

المتسول يجيب وهو لما يزل مطرقاً.

– أنا تحت الخدمة.

اندفع الفنان يقول بنبرة دافقة.

– أنني رسام مكلف برسم موضوع معين وقد اخترتك لكي تجسّد جزءاً هاماً ومكملاً للوحة

هدرت من جوانح المتسول تنهيدة طويلة رامضة.

– وهل أستطيع أن أعرف ولو جزء يسير من الموضوع.

أجابه الفنان باللهجة الدافقة نفسها.

– حسن ...، سأكلمك بكل صراحة، أنني أرسم منذ فترة لوحة العشاء الأخير وقد انتهيت من رسم كل الشخوص، إلاّ واحداً، وهو يهوذا الاسخريوطي، وقد وجدتُ في هيئتكَ ووجهك. «ولتعذرني عن صفاقتي»، المعنى الحقيقي المجّسد لخائن المعلم، وسآتي غداً مساءً وفي نفس الوقت لأتلّقى الجواب.

ويترك الفنان الشاب المتسول في دوامة هائلة من الانفعالات.

***

هتف الفنان بنشوة الفنان الفريد.

– اكتملت اللوحة .. يسوع في قمة الجمال ويهوذا في قمة القبح، شكراً للرب.. شكراً للرب.

ثم التفت إلى المتسول الجالس على أريكة خشبية وهو يتخذ الهيئة التي أرادها الفنان لخائن ابن الإنسان وهتف به.

– تستطيع أيها الصديق أن تتملى نفسكَ في اللوحة.

نظر المتسول في اللوحة لفترة طويلة جعلت الفنان ينتبه إليه ويتأمله بعمق، وبغتة .. تهالك المتسول على الأرض ونشج بعمق وقوة ثم بكى بحرقة، بكى لفترة كالأطفال، والفنان يراقبه بحيرة وعطف وهو لا يدري كيف يتصرف حيال هذا الموقف الطارئ، ولكنه بفطرة الفنان المرهف تركه على حاله يفرغ بركانه الداخلي على البلاط في هيئة قطرات ألقة صافية من دموع جعلت الفنان ينتبه لكمال الدمعة الصادقة الحقيقية كلوحة في أوج جمالها وبهائها .. استراح الشاب بعد أن مسح بقايا دموعه بكم قميصه المتسخ ثم جلس على الأريكة ونبر معتذراً.

– عذراً لهذا الإزعاج.

– لا بأس يا صديقي.

ثم بعد برهة صمت سأله الفنان.

– هل لي أن أسأل ؟

– سل.

– هل آذيتك إذ صلبتك في لوحة كرمز للخيانة.

– لا يا صديقي، بالعكس، الآن فقط تيقنت إن قمة الجمال هو الوجه الحقيقي لقمة القبح.

رطن الفنان بذهول.

– ماذا تقصد ؟!

بعد فترة صمت أجاب الشاب بنبرة عميقة وهو يشير نحو بؤرة اللوحة.

– هذا هو المسيح .. أليس كذلك ؟

– بالضبط.

– وهذا هو أنا ... عفواً ... يهوذا.

– نعم.

فقال الشاب فجأة بجرأة حيرت الفنان.

– أنهما متشابهان، بل هما واحد.

صرخ الفنان بعصبية.

– إنك تهرطق.

– لا يا صديقي.. الآن فقط عرفت إن القبح والجمال ليسا هنا.

وأشار إلى وجهه.

– بل هنا.

وأشار إلى قلبه.

فقال الفنان والحيرة في عينيه مركب تائه يبحث عن فنار.

– كيف .. ؟!

صمت الشاب قليلاً ثم استطرد.

– أتذكر أيها الفنان ذلك الشاب الفاتن الذي وجدته في حانة بالمدينة يعزف على البيانو؟.

قال الفنان وقد ازداد قنوط المركب من ايجاد الفنار.

– أذكر، وقد جسّدته رمزاً للمسيح كما تراه في اللوحة.

– بالضبط، هذا واضح.

وبغتة قاطع الفنان الشاب بهتاف.

– مهلاً ... كيف عرفت بهذه الحادثة؟.

فقال الشاب بكل هدوء.
– ذلك الشاب هو أنا.

***

إشارة:..

ومما عرفه الفنان فيما بعد أن العازف الشاب الذي صار بعدئذٍ متسولاً سكيراً، تعرض لحادث انقلاب عربة أدى إلى حدوث تشوهات في وجهه.

الطيف

القاعة يلفها وجود صباحي مكفهر، والسحب في السماء ألمحها من خلل درفتي النافذة الأسطوانية الشاهقة، تحت سقف القاعة، رصاصية تسعى على نياسمها كقطيع ماعز جبلي، وبنسق منظم مع غيوم بيضاء متناثرة كقطع القطن المداف، فكنت ألمح في كبد الشواهق تناغم الأسود وهو الغالب مع الأبيض وهو المغلوب وهي تتوعد القباب والمجرسيات الصامتة بلجب من المطر والبرداء وربما الثلج،.. والنهار خارج القاعة أراه أيضاً من خلال البوابات العالية الموارية، كئيباً موشوماً بالصرامة، يفصح تماماً عن طويتي التي لازمتني مثل توأم سيامي مذ استيقظت فجراً، وحشّيةُ جمجمتي تلّح وتفصح عن قلق مشبوب يمسك بخوانقي، كلما أوشك عادة على انجاز عمل فني اكتمل أمام الناظر، وأمام باصرتي الظاهرية الخارجية، أراه منقوصاً في بصيرتي المتماهية مع بصيرة المثال الإغريقي وهو يتوسل أن ينطق تمثاله الأنثوي الحجري بعد أن أتم عجنه وتمثّله بشعلة روحه التواقة إلى اجتراح ما لا يتصوره العقل،... وأنا،،، هنا في قلب القاعة أتملى ما أنجزته في مرسم القصر الباذخ لدوق ميلانو (فرانشيسكو سفورزا Fracesco Sforza الذي لم يبخل عليّ بأي طلب مهما كان عصياً، والمحال يصير متوافراً حالما يخرج الطلب من فمي، وبذل كل ما لا يبذل من أجل راحتي وتيسير كل المسالك مهما

كانت درجة وعورتها من أجل انجاز حلمه/ المستحيل، والذي متيقن من أنه محال على جلّ أندادي وخلاني، إلاّ هذا الفنان الذي أخذ من الشهرة والحرفنة الذي هو أنا، بقدر يفوق ما أنجزته من أعمال فنية رغم روعتها، مبتداها اللوحات التي لا أنجزها بل تعافها نفسي التواقة المتوقدة نحو الحلم العصي المستحيل الذي ما فك طلاسمها أحد سواي والتي زنزنتها في حشايا رأسي الغائرة في قمم الرواسي التي تستبطنها غيران دماغي، وليس آخرها التماثيل التي تتوسط ساحات فلورنسا وميلانو وسائر المدن، الصغيرة منها والكبيرة، والتي يحس من يعاينها، باستثناء من جبلها وصبها وأشرف على نصبها، إنها قمة في التجسيد وكأنها شخوص حقيقية، وهذا ما آمل أن لا يتحقق في طواياي أن لا أعزف عن تكملة هذا المجسم الصلصالي الذي يجسد فارساً وحصاناً متوثباً، وأن أقتفي خطى أولئك الأغارقة والرومان الذين كانوا موقنين أن ما يعوز هذه المجسمات التي جبلتها ذاكرتهم الوقادة قبل الأنامل المدربة والمحترفة بأنها لا يعوزها شيء سوى أن تسري (شعلة الحياة) في دفائنها كي تسعى في دروب الحياة وتمارس حياتها إسوة بباقي المخلوقات، هذا ما يراودني الآن وأنا في هذه القاعة الكئيبة أحاول –كغطاس– أن استشف دخيلة الممتطي صهوة الحصان ومدى تماثله مع الصورة التي نقلها حاكم ميلانو عن والده الفارس، وعلى استناد ما استغورته من وصف تجسدت ملامحه على الورق، وأريتها ذات مساء وأنا أفرش لفائفي على المكتب الفخم داخل الصالة الفسيحة المزدانة جدرانها بلوحات باهرة أنشأتها ريشتي القلقة الباحثة عما يمور في نفسي من توجس فني وبحث وسفر مضنٍ نحو إقناع روحي في أن ترضى عما أنجزه على الحائط الكلسي البارق ببياضه النديفي البكر، وإزاء الحيطان ثمة مجسمات تتصقر بأبهة وخيلاء على قواعد مرمرية تحدد معالم القاعة، ونحن... الحاكم وأنا، والأدق..

أنا والحاكم واقفان نتطلع إلى الرسم المختار والذي يمثل في أعلى اللفافة صورة الفارس والحصان، وفي الأسفل المقسوم إلى نصفين متجاورين، في كل واحد منها صورة، ففي الأولى تفاصيل الفارس وبعض الأرقام والمرموزات الحرفية، يماثله في نفس السياق والتفاصيل صورة الحصان، وبعد أن تأخذ اللفافة الأولى بتلابيب كينونة الحاكم، أعمد إلى اللفافة الثانية وأبسطها جوار الأولى والتي تمثل فناء قلعة (سفورزيكو) حيث من المؤمل أن ينتصب التمثال في قلبها، وفيها رسوم وجمل وأرقام تمثل التفاصيل الكاملة لما تفتقت أُخيلتي من تصميم مبهر لمكملات النصب من مقاعد وأيكات ومجسمات تحتفي بالنصب مثلما يحتفي الفرسان بالقائد المظفر، ويضفي على المدينة والمدخل والباحة والقصر رمزاً فنياً جمالياً خرافياً في سحره وبهاءه.

وبعد أن مكثنا زهاء الساعتين نناقش الموضوع وكؤوس النبيذ المعتق الأحمر تتوالي وتتعاقب مع تصرم الساعات تم الاتفاق بين حاكم المدينة الزاهرة وبين الفنان المأزوم الذي يبحث عما يعتبره العوام والنخبة في آنٍ، من البدهيات، وهم يرتكنون إلى أرفف القناعة غير الثابتة لدى روحي المجنونة في البحث عن الشواهق من الرواسي التي تنتهي مشرفة على بحور الحيرة في مسننات صخرية مرعبة، وغالباً ما تستفزني تينك القناعات الزائفة المخدرة للبصر والبصيرة، وأنا أتأمل هيئة الفارس الناهضة بحركة تروم الطيران والتحليق إلى آماد غير منظورة وهو يماهي نفس الإحساس في جمجمة الحصان الصائل، وأهمس لنفسي: إن ثمة خطل في الأمر،.. وإن لم يكن خطلاً فهو لغز... وإن لم يكن كذلك فهو أمر ينسطل بكينونته خلف أسوار القناعة الزائفة بسكونية وثبات المسلمات،... فعندي أن الأمر غير سوي، فليس ثمة في الكون والحياة (مسلمات) بل ثمة (قناعات) قادمة تقوّض هذه (المسلمات)، وبعد أن تترسخ هذه

ال... (قناعات) تتقدم في ميدان التفكير والذاكرة الإنسانية الفردية والجمعية (قناعات) جديدة تفعل ما فعلته ال (قناعات) السابقة ب (قناعات) أسبق، وهكذا تتوالى المفاهيم الجديدة التي تستلم من مفاهيم أسبق، وهذه (.....) الجديدة تسلّم إلى (.....) أجدد،،، وتتوالى الحياة.

وقفزت إلى ذهني وأنا ألملم أوراقي وأضعها في اسطوانات معدنية وعيناي تلمحان السرور البالغ المرتسم على عينيّ الحاكم، صورة «شعلة الحياة» التي لم أستكنهها لحد اللحظة... لا في عينيّ الفارس، ولا في عيون تينك الجثث التي شرّحتها في المقبرة، وتخاطر إلى خاطري هاجس: هل أحتاج إلى زيارة لعشّ صديقي الحارس؟؟.

الحارس

منذ الفجر، أضفت خطاً جديداً في أديم أوراقي دلالة على يوم، وأحصيتها،... بلغت أربعين خطاً، وأنا أبحث عن صديقي. لم أدع مكاناً لم اتقصى عنه فيه، منذ الشفق أخرج من المقبرة في رحلة يوليوسيسية بحثاً عن إيثاكا، أقطع الدروب وألجّ الأزقة، ويصافح بصري الوجوه والقامات التي تتعاضد في آصرة اعتبارية تتسقطها عيناي المدربتان على التخمين والتوقع والاستبصار، بيد أن الصورة المطبوعة في كياني عن الطيف الذي زجّج لياليّ بمشورات المعرفة سيمّا حين تنفتح بصيرة منابع أخيلته الصافية وهي تسرد حكايات وقصص وأساطير الأولين بلغة رائقة مشوقة، ولعل حكايته المستوحاة من اسطورة قديمة الموسومة (أبو جراب) التي حفظتها وصارت شفتا ذاكرتي المدربة على حفظ النفائس من المعارف في شتى مناشئها، لن ولن تبارح أغوار روحي التي تردد ما رددته حشية ذلك الطيف الغالي: (إن دمه الساخن قد أعاد الحياة إلى صغاره، إن حبه بعث فيهم الحياة، وحينئذٍ لفظ أنفاسه الأخيرة وهو سعيد) تبكيني رغماً عني،... نزفت روحي بكاءً ثاوياً أمام دهشة امرأة مسّنة واقفة على عتبة دار قديمة قبالتي، وهي ترمق بفضول نثيث قطرات الدمع المنسابة من موقيّ والمتألقة كقطرات الطلل في نهايات شعيرات شاربي ولحيتي المحناة، والتي سألتني بحنو عجوز رؤوفة.

– ما بك... هل تحس بشيء؟، هل تحتاج إلى مساعدة؟

وأنا أكفكف دموعي بمنديلي أجبتها بعين اللهجة الودودة التي شملتني بها.

– لا شيء، شكرا لفضلك؟

وبدافع ذياك الفضول سألتني.

– هل تبحث عن شيء؟

وخرج الاسم من فمي دون أن تتحكم به ارادتي.

– جوفياني.

فاستطردت.

– هل هو ابنك؟

هززت رأسي موافقاً ومنهياً الحوار باجتيازي لها.

– أجل.

ورفعت ناظري صوب الحالق متمعناً، كانت الشمس على الكتف الأقرب للشرق في السماء، وتوارد إلى خاطري تساؤل.

– هل سأخط فجر الغد خطاً آخر؟ أم ستنتهي رحلتي وتبحر سفينتي إلى إيثاكاي، ثم.....؟؟

ثم خمنت: لدي ساعة واحدة لأعود إلى يوتوبياي المتمثلة بالشواهد والرموس وأيكات الورود والأشجار الباسقات، وحسدت نفسي على عدم افتقاد زوار المقبرة أو المسؤولين لغيابي الصباحي كل يوم،.... وتناهى إلى مسامعي، وأنا أنعطف من زقاق ضيق نحو شارع رئيسي عريض يفضي إلى قصر منيف شبيه بقلاع الملوك، صوت ضوضاء تختلط فيها ثرثرة الناس الخفيضة بضجيج عجلات العربات العديدة والجند الكثر المتواجدين ببزاتهم الأنيقة وهم يعتمرون الخوذ وعلى أجنابهم تتأرجح السيوف في أغمادها، فاندلق جسدي إلى الشارع كتلبط سمكة

يعيدها الصياد إلى النهر اشفاقاً بها أو استهانة بحجمها المتناهي في الصغر، فوجدت الأرصفة مكتظة بالناس من مختلف الأجناس ومختلف الأعمار وهم يتطلعون إلى ما يجري خلف سياج قصر رحيب بقباب تلتمع تحت رحى مويجات شمس الضحى، تنداح خلف بوابتها المسقفة على شكل أقواس ثلاث أوسطها أعلاها، دروب محصبة وممرات ومربعات موشاة بالأزهار والأوراد والشجيرات اليانعة الصادحة المتغنجة بجمالها، والتي تتناصفها وتحاذيها وتحززها نافورات يتدفق منها الماء منعشاً رائقاً آية في الجمال، وللناظر من علو لا يخطئه الظن بأن كل هذا السحر من ذائقة فنان تحسده حتى الموهبة المترسة الراسخة ذات شأوٍ بعيد في الصنعة، وثمة في ميدان دائري قاعدة مرمرية تستند على أعمدة من صوان أبيض بلون الثلج المعجون مع التراب تحفها من أطرافها الأربعة درجات من الجلاميد تحفها وفي كل درجة نازلة أفواف الورد والزهر ومسورة بأسيجة من الآس المخضوضر الزاهي، والناس من خارج الأسوار تتطلع بدهشة إلى تقاطر السقالات والرافعات وهي تمشي ببطء وروية وفي جوف أضخمها ثمة تمثال كبير مجبول من الصلصال لحصانٍ يمتطيه فارس، أجهد المثال الذي أنشأهما في بث روح الجمال والحياة في كل تفاصيلهما... الفارس والحصان، وثمة —من يتأمل بهما بتمعن مستعيراً صنعة وروح الفن– أن ثمة وشيجة أو آصرة، أو تماهٍ... بين العيون، عينا الحصان اللتان ترمقان الفضاء بنظرة خيلاء وتحدٍ، وعينا الفارس الذي يبعث شلالاً من دفق مصهور بالمحبة إلى الفضاء عبر الفسحة المشيدة ما بين أذنيّ الحصان المتواترتين، وكأنه يترجاه عبر شفتيه المنفرجتين بسر مشترك يجعل الحصان يتألق في تحليقة تثقب الفضاء وترتحل عبر بواباتها إلى عالم غير مرئي يسمو على هذا العالم عبر جناحين ترفان عبر روح الفارس في رحلة لن يرى تراب البسيطة أي هبوط لسنابكه البته،

لترتكن ذاكرة الرائين إلى فرضية أنهما تماهيا في هيئة جديدة وحلقا إلى قرائن لهما في عالم افتراضي آخر،.... إنداح نظره يتملى الوجوه التي تجاوره فألفاها مشدوهة مأخوذة بالسحر البهي نحو المشهد الاستثنائي النادر الذي لن يتسنى –ربما– للآخرين أن يروه في قادم الزمن، فقد أخذ بألبابها هذا التجسيد المذهل لتفاصيل الشاخصين، ناسية القصر الذي تطوق سياجه في ترادف صارم أجساد الحرس الملكي على أعنّة جيادهم مزهوين بنياشينهم وبدلاتهم التي تعلن عن مراتبهم العالية، ومن فم مدخل القصر انتظمت جحافل الجنود المجوقلة في لحظة التوطئة القصوى لجو احتفائي سيعلن عنه بعد لويحظات، كل ما كان متواجداً أمام البوابة غافلته العقول المسوسة المتعاشقة مع التمثال أو تناست هيبته وسطوته،.... وبغتة... بغتة... بغتة، وفي نهاية كردوس الحرس نبت كشجرة خرافية وارفة يانعة زاهية، فانسلخت عن الحشد وهتفت بصوت ثقب سكون الفضاء.

– جوفياني!!!.

خالني الحرس معتوهاً أو شريراً يعتزم فعلاً سيئاً قد يصل إلى الاغتيال، فأحاط بي فارسان، وركض باتجاهنا أربعاً من الفرسان وفي لمحة عين وجدت ذراعيَ مصفدتين وجسدي منكفيء على بطنه فوق البلاطات وقد وضع فارسان أقدامهما فوق ركبتيّ وعلى أعلى ظهري، حززني الألم الممض ومن جذوة هذا الألم صرخت متوجعاً.

– جوفياني.

وعيناي تحقان بالجسد/ الشجرة، لتي استدار وحق ، التقت العيون، استشففت عينيه فوجدت فيهما أُصصاً من قداح المحبة والطيبة، فهرول صوبنا وخرج صوته هادراً آمراً.

– اطلقوه.

وكأنه أمر من حاكم ميلانو، فكوا عن جسدي ثقل أرسافهم ووقف كبيرهم في وضعية احترام أمام جوفياني الذي ابتسم له وربت على كتفه، ثم التفت إلى الآخرين وقال بتينك اللهجة الحازة الآمرة.

– أنهضوه.

امتثلا للأمر على الفور فأوقفاني على ساقيّ، نفضا عن ثيابي الغبار العالق ثم وقفا باحترام وهما يسنداني... دارت الموجودات أمام عينيّ لوقت قصير، فتمازجت أجساد الحشود المتقاطرة المتدفقة أمام البوابة وعلى جانبي السياج المترامي مع أجساد الفرسان وجحافل الحرس في تآصر فريد غير منطقي مع الباحة والقصر المنيف بأشجاره الموردة المتسلقة على الجدران والمعانقة لسقوف الشرفات، ثم عادت الصور تنفصل عن بعضها لتعانق رؤاي هيئة جوفياني بملابسه التي لا يرتديها سوى النبلاء، ووجهه الصبوح المرشوش بابتسامة تائهة تفصح عن حيرة وتوجس وخوف، وأيضاً زخات من المحبة الصادقة تنثال من عينيه البارقتين. مد كفه بغية مصافحتي، ولكن ما حدث لي خلال تلك اللحظات كانت لما تزل تسكنني فبقيت واقفاً كالمصطول، ترنحت كفه قليلاً في الهواء، وخرج صوته حزيناً.

– من حقك أن تتجاهلني.

وأسقطها جنب جسده. وهمس.

– أنا بروتس الخائن.

ودون وعيّ احتضنته وأنا ألهج بصدق.

– أنت أعز صديق.

بقينا في عناق حميمي وسط ذهول قائد الفرسان وقائد الحرس ومن يتبعهما، وكذلك الحشد المتجمهر خارج البوابة، ران الصمت على الأرجاء، والعيون ترى كائنين تماهيا واستحالا إلى كائن واحد، وهي لا

تفقه ولا تجد تفسيراً لما يحدث أمامها،... رجل من عامة الناس بملابس عادية تكاد تكون بالية، يعانق رجلا طبقت شهرته الآفاق، اسمه يسبق حتى الهواء المسافر عبر الفضاء إلى المدن، الكبيرة منها والصغير، إلى القرى، الكوَر منها والضياع، في أرجاء القارة العروس، وحين زال تأثير الذهول إنتبه الجند والحرس معاً إلى الوضع الطاريء الاستثنائي لأي أمر يصدر عن هذا الرجل النبيل الذي حين انفك عن أسار سحر الموقف، همس برجاء.

– هل سامحتني؟

أجبته بدفق صادق.

– أنت ما آذيتني كي أسامحك.

قال كمن يعترف في حضرة قس.

– ولكني خدعتك...؟

قلت بذياك الشعور نفسه.

– كان غرضك نبيلاً.

وأخرجت السجل، ضممته إلى صدري، نفضت عنه غباراً مفترضاً، بل على الأصح أضفت إليه من غبار الواقعة على صدري، مددته إليه.

– نسيته عند مغادرتك.

وبعد صمت قليل أسرت.

– منذ شهر ونيّف تقريباً... مذ غادرت المكان الذي اقتسمنا العيش فيه وأنا أطوي الأزقة والشوارع بحثاً عنك.

استلم اشارتي التي لم افصح باسم المكان الذي تقاسمنا العيش فيه بومضة خارقة من عينية استلمها بؤبؤاي دلالة الإعجاب من نباهتي وامتنانه على عدم ذكر الاسم الصريح، فقال وهو يستلم السجل مني.

– إن هو سجل مليء بالألغاز والطلاسم والرسوم التي لا معنى لها.

نبرت بكلام أقرب منه إلى الهمس من الجهير.

– ولكنها جد رائعة وممتعة وخاصة حكاية (أبو جراب)...

توسعت حدقتاه ونبر بذهول.

– أفككت اللغز.؟!!؟.

أجبته بهمس أخف.

– الأسطر المعكوسة و..... المرآة.

– قال مسكوناً بالإعجاب.

– أنت عبقري.

أجبته.

– وأنت، وإن لا أعرفك، بعد ما رأيت الآن... فلتة هذا الزمان، وربما الأزمان القادمة الغائرة في لب شفق المستقبل.

بانت أسنانه النضيدة البيضاء –وذائقته تبحث عن ماهية الخرافة التي هرفت بها ذاكرتي للتو– من خلل ابتسامة مشرقة وهمس.

– وإن أتيتك ثانية... هل ستطردني؟.

سبابتاي سارعتا نحو محجريّ وهمست.

– مكانك هنا.

عانقني ثانية ثم همس بأذني اليمنى.

– سأتريث هنا لفترة قد لا تطول ريثما أنهي نصب الفارس والحصان، ثم أزورك.

وكدت أسأله.

– من أنت؟

ولكن إشارته إلى قائد الفرسان وأمره.

– أكرموه خير الاكرام.

وانحناءة قائد الفرسان وقوله.

- أمرك... سيدي دافنشي.

جعلت فمي فاغراً وعيني مفتوحتين على سعتي حدقتيهما، وشفتي تهمسان.

- دافنشي.

ثم... غب أن توافد اللعاب إلى فمي المصاب باليباب، استطردت.

- ليوناردو دافنشي؟؟؟!!!...

وكانت اشراقة ابتسامة ربيعية تنفرش على جبينه وعينية وغمازتيه، الجواب الشافي الذي أخمد أوار سعير المفاجأة، ثم همس بصوت مموسق.

- أجل.

وبعد وقفة وامضة استتلى.

- صديقك الوفي... ليوناردو دافنشي.

الطيف

هذا ديدني دوماً، صار فعلي هذا صنواً لشهيقي وزفيري الباحثين عما وراء سكونية الدقائق المعاشة برتابتها وبلاهتها، أنا أعرف أن لكل فعل ليس فقط رد فعل، بل عليّ أن أفقه وأتقصى الباعث على الدافع، أنا في سكون جسدي على الحائط الرخامي لكنيسة دارسه أتأمل الغروب الذي يفترع السماء ورؤوس الأشجار وشعف الفنائر، وقمم المنائر، أعرف أن ثمة ما يمور ويتدفق من فعل محسوس لا يفصح عن كينونته، ولكنه يمنح ذخائره كقصفة برق خاطفة لمن أفنى دقائقهُ في اقتناصها والظفر بمفاتيحها، وأنا في رحلتي الغامضة في البحث، لم أترك زاوية من بناء مهجور، أو قنطرة تمتطي صهوة نُهير صغير تلتهمهُ أكمتان معرشتان بما لذ وطاب من فاكهة وأوراد، أو أثناء ذهابي وإيابي ربما للمرة المائة وذراعاي تعانقان في تشابك كفيّ المتراقصين كالبندول أسفل ظهري، أحدق من خلل نهاية قبعتي الصوفية نحو أسيجة حدائق ميلانو المتشحة بالدفلى والأزهار والنسيم المنعش، عَلّ ومضة كومض الشهب المتساقطة ليلاً والتي تشد انتباهي بسبب الغبار الدقيق الساحر الغامض الذي يخلفه أثناء رحلته اليوليوسيسية نحو حتفه، وأنا من موقعي أحاول أن أبني في أخليتي كنه العالم الرمادي المتوهج في ثنياته، ويبقى جسدي المسكون بسعير الاكتشاف يكتوي بلجاجة ذاكرتي المهووسة بالتنقيب

في ما وراء الواقع، فأعيا متهالكاً على الحائط الدارس للكنيسة المهجورة أصارع الفجر بأنفاسي المنتظمة في عربة النوم الفجري اللذيذ، أو تنداح قدماي في صراع بين الأيمن والأيسر من اللابد بين ضفتي الجسر فأختار أيكة ورد بنفسجية تصير لجسدي الوسنان فراشاً لا يختاره إلاّ الفنان الذي يروض البنفسج بحنكة ودراية وحرفة، أو أتمدد فوق العشب الندي لحديقة تبتسم بوجه الفجر الوليد اللدن وتسابق ابتسامته أو صرخته الأولى بهتاف القداح الجميل وتبقى البصيرة هي وحدها فقط السابحة في اهليلج الفرحة الأولى للولادة، وبعد أن أنهكني البحث، وفي مرور عابر قرب سياج حجري نبتت بين فجوات حجارته براعم فتية لنباتات لا اسم لها، تعّمق في ذهني الخاطر، فاتسعت ابتسامتي التي كانت تغازل الصمت الشفقي الزاحف، ونما إلى حشيتي خاطر شبيه بخاطر صياد ضائع اهتدى دون هدي منه إلى جزيرة كانت أقرب إليه من نفسه، فتوقفت، وفتحت أزرار معطفي الأدكن، وعدّلت من شأن شلوي، ثم ألقمته الكتف الآخر، واتجهت نحو البوابة الشاهقة... وحالما مددت كفي نحو الأكرة الباب انفتحت البوابة وأطل منها الحارس بوجه مبتسم تعاضده رنة صوته المائزة.

– أهلاً بصديقي الغالي فنان وأديب العصر ليوناردو دافنشي.

تعمقت الابتسامة على ملامحي وهي تتهيأ لزَبَد السؤال الذي تطامن في رأسي وابنّث أخيراً كالنار الثاوية المقددة وهي تنقذف من فوهة البركان وفمي يسأل بهدوء تطامن مداه عابراً البوابة والمقبرة والمدينة والكون.

– من أنت..؟؟!!.

***

السيرة الذاتية:

هيثم بهنام بردى
الأسم الكامل: هيثم بهنان جرجيس بردى
– ولد في العراق/ عام 1953.
– عضو اتحاد الأدباء العراقيين.
– عضو اتحاد الكتاب العرب.
– عضو نقابة الفنانين العراقيين.
– عضو فخري مدى الحياة في دار نعمان للثقافة اللبنانية.
– رئيس تحرير مجلة (إنانا) التي تعنى بشأن المرأة.
حضر وشارك في مهرجانات وملتقيات عديدة أبرزها:
– الندوة العربية الأولى للقصة الشابة التي أقامتها مجلة الطليعة الأدبية في بغداد عام 1980.
– ملتقى القصة العراقية في بغداد عام 1995.
– ندوة الرواية العربية في بغداد عام 2002.
– الملتقى الثالث للقصة القصيرة جداً في حلب عام 2005.
– الملتقى الرابع للقصة العراقية (ملتقى د. علي جواد الطاهر) في بغداد 2008.
– مهرجان الجواهري عام 2010 وعام 2012.
– مؤتمر ثقافة الأطفال الدولي الأول في بغداد عام 2010.
– معرض إيطاليا الدولي للكتاب في إيطاليا (مدينة تورينو) عام 2014، ألقى فيها محاضرة في «القاعة الزرقاء» عن الأدب السردي العراقي الحديث.

أصدر أربعة وعشرين كتاباً موزعاً على:

الرواية:

1. مار بهنام وأخته سارة/ مركز أكد للطباعة والإعلان – أربيل 2007.
2. قديسو حدياب/ مركز أكد للطباعة والإعلان – أربيل 2008.

– صدرت باللغة السريانية عن دار منارة في أربيل عام 2011 ترجمة: كوركيس نباتي.

3. أحفاد أورشنابي/ دار ثقافة للطباعة والنشر والتوزيع– ابوظبي، بيروت 2015.

الرواية القصيرة:

1. الغرفة 213/ مطبعة أسعد – بغداد1987.

– صدرت طبعتها الثانية عام 2017

2. الأَجسَاد وظِلالُها/ دار أمل الجديدة – دمشق 2017

القصة القصيرة:

1. الوصية/ دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة – بغداد 2002.
2. تليباثي/ دار نعمان للثقافة– بيروت 2008.

– صدرت طبعتها الثانية عن دار الينابيع بدمشق عام 2010.

– صدرت طبعتها الثالثة عن دار أمل الجديدة بدمشق عام 2015.

3. نهر ذو لحية بيضاء/ دار رند للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق 2011.
4. أرض من عسل/ دار الحوار للنشر والتوزيع– اللاذقية، سوريا 2012.

القصة القصيرة جداً:

1. حب مع وقف التنفيذ/ مطبعة شفيق– بغداد 1989.
2. الليلة الثانية بعد الألف/ منشورات مجلة نون – الموصل 1995.
3. عزلة انكيدو/ مطبعة نينوى – بغداد 2000.

4. التماهي/ دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة – بغداد 2008.
5.القصة القصيرة جداً/ الأعمال القصصية 1989–2008 / دار رند للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق 2011.

أدب الطفل:

1. الحكيمة والصياد/ مسرحية للفتيان/ مطبعة بيريفان– أربيل 2007.
2. مع الجاحظ على بساط الريح/ سيرة قصصية للفتيان– دار رند للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق 2010.
3. العشبة/ مسرحية للفتيان/ مطبعة الديار– الموصل 2013.

الإعداد والتقديم:

1. القصة القصيرة جداً في العراق/ إعداد وتقديم– المديرية العامة لتربية نينوى– الموصل 2010.
– صدرت طبعتها الثانية «مزيدة ومنقحة» عن دار الشؤون الثقافية عام 2015.
2. سركون بولص عنقاء الشعر العراقي الحديث/ إعداد وتقديم– إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية_ أربيل 2011 .
3. القصة القصيرة جداً... الريادة العراقية/ إعداد وتقديم/ دار غيداء للطباعة والنشر والتوزيع– عّمان، الأردن 2016

الكتابة المفتوحة:

– الذي رأى الأعماق كلها/ كتاب انثيالات – مطبعة ميديا – أربيل 2007.
سلسلة مبدعون عراقيون سريان:
1. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية/ إعداد وتقديم – إصدار المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية – أربيل 2009.
– صدرت طبعتها الثانية عن دار تموز للطباعة والنشر – دمشق 2012.

– صدرت ترجمتها إلى اللغة الكوردية من قبل أحمد محمد إسماعيل وصدرت عن المديرية العامة للثقافة والفنون السريانية عام 2012.
2. قصاصون عراقيون سريان في مسيرة القصة العراقية القصيرة جداً/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع – دمشق 2012.
3. روائيون عراقيون سريان في مسيرة الرواية العراقية/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق 2012.
4. كتّاب أدب طفل عراقيون سريان في مسيرة أدب الطفل العراقي/ مطبعة شفيق– بغداد 2013.

كتب صدرت عن أدبه:

في الرواية
– دلالات المكان في روايات هيثم بهنام بردى/ محمود ناصر نجم/ مطبعة الدباغ– أربيل 2016.

في القصة القصيرة
1. تجليات الفضاء السردي– قراءة في سرديات هيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: أ. د محمد صابر عبيد/ دار تموز للطبعة والنشر والتوزيع– دمشق2012.
2. شباط ما زال بعيداً، دراسات نقدية في المجموعة القصصية أرض من عسل لهيثم بهنام بردى/ إعداد وتقديم: جوزيف حنا يشوع/ مطبعة الديار– الموصل 2012.
3. الكون القصصي، تجليات السرد وآليات التمظهر، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ محمد إبراهيم الجميلي/ مطبعة الديار– الموصل 2013.
4. المهيمنات القرائية وفاعلية التشكيل السردي في مجموعة نهر ذو لحية بيضاء/ إعداد وتقديم ومشاركة: الدكتور خليل شكري هياس/ دار نينوى للطباعة والنشر والتوزيع– دمشق 2014.

5. جماليات تشكيل الوصف في القصة القصيرة، قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق 2014.

في القصة القصيرة جداً

1. حبة الخردل/ دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم خالص ايشوع بربر/ منشورات اتحاد الأدباء السريان- الموصل 2005. صدرت طبعته الثانية عن دار رند للطباعة والنشر والتوزيع في سوريا عام 2010.

2. شعرية المكان في القصة القصيرة جداً- قراءة تحليلية في المجموعات القصصية لهيثم بهنام بردى/ د. نبهان حسون السعدون/ دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع- دمشق2012.

3. الثريا، دراسات نقدية عن تجربة القاص هيثم بهنام بردى في كتابة القصة القصيرة جداً/ إعداد وتقديم: خالص ايشوع بربر/ مطبعة شفيق- بغداد 2014.

في الحوار

- أسماء في ذاكرة المدينة - هيثم بهنام بردى/ حوار: نمرود قاشا، تقديم: معد الجبوري/ مطبعة شفيق- بغداد 2013.

دراسات أكاديمية عن أدبه:

- حاز الأستاذ محمد إبراهيم الجميلي على شهادة الماجستير بدرجة «جيد جداً» من كلية التربية الأساسية / جامعة الموصل بتأريخ 2013/3/3 عن رسالته الموسومة (السرد في قصص هيثم بهنام بردى القصيرة).

- حازت الأستاذة نادية نزهة سليمان على شهادة الماجستير بدرجة «امتياز» من كلية التربية للبنات/ جامعة تكريت، بتاريخ 17/ 2/ 2014 عن رسالتها الموسومة:

(جماليات القصة القصيرة جداً/ هيثم بهنام بردى مثالاً).
– حاز الأستاذ همام حازم عطا على شهادة الماجستير بدرجة «جيد جداً عالي» من كلية الآداب/ جامعة تكريت، بتاريخ 2015/1/11 عن رسالته الموسومة (العتبات النصية في سرد هيثم بهنام بردى القصصي).

الجوائز:
– حائز على جائزة ناجي نعمان الأدبية اللبنانية لعام 2006.
– حائز على الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية في وزارة الثقافة العراقية عام 2006 عن قصته القصيرة «النبض الأبدي».
– حائز على الجائزة الثانية في مسابقة وزارة الثقافة لمسابقة أدب الأطفال/ دار ثقافة الأطفال/ جائزة (عزي الوهاب للنص المسرحي) عام 2010 عن مسرحيته الموسومة (العشبة).
– حائز على الجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة التي أقامها قصر الثقافة والفنون في محافظة صلاح الدين عام 2011 عن قصته الموسومة (الرسالة).
ورد اسمه:
– في كتاب (موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين– الجزء الثالث– صفحة 281) الصادر عن دار الشؤون الثقافية العامة عام 1998 لمؤلفه الأستاذ حميد المطبعي.
– في كتاب (موسوعة أعلام الموصل في القرن العشرين – صفحة 600) الصادر عن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي/ جامعة الموصل – مركز دراسات الموصل– عام 2007، لمؤلفة الأستاذ الدكتور عمر الطالب.

الترجمة:
– ترجمت بعض قصصه إلى اللغة الإنكليزية والهولندية والفرنسية والإيطالية.